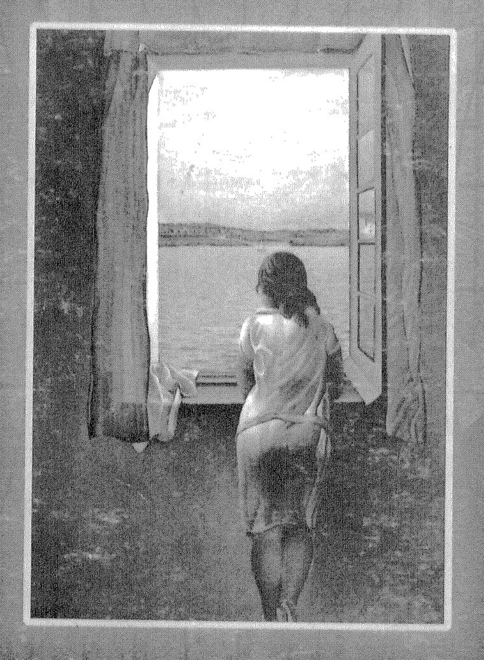
حياتى فى مصر

مذكرات فتاة سويسرية عاشت فى الاسكندرية

١٩٣٤ - ١٩٥٠



تأليف : إستر تسيمرلى-هارتمان

ترجمة : محمد أبو رحمة

تقديم : شوقى فهيم

حياتى فى مصر

مذكرات فتاة سويسرية عاشت فى الاسكندرية

١٩٣٤ - ١٩٥٠

تأليف : إستر تسيمرلى - - هارتمان

ترجمة : محمد أبو رحمة

تقديم : شوقى فهيم

العنوان الأصلى للكتاب

Mein Leben in Aegypten,

Erinnerungen eines Schweizer Mädchens,

das in Alexandrien geboren und aufgewachsen ist

1934 - 1950

تقـــــــديم

دعنا نتخيّل كاتباً روائياً يعيش سنة ٢٧٥٠ ميلادية وأراد أن يكتب رواية تصور الحياة فى الاسكندرية عام ١٩٤٥م، أو كاتب سيناريو، بعد مئات السنين، يكتب فيلماً سينمائياً عن الإسكندرية عام ١٩٥٠م، فمن أين يستمد مثل هؤلاء الكتاب، القادمون بعد سبعمائة سنة ، من أين يستمدون مادة أعمالهم؟ إنهم سوف يعتمدون أساساً على مذكرات أو يوميات مثل هذه التى بين أيدينا الأن. هذا التصور جال بخاطرى عندما قرأتُ أعمال الكاتب الروائى أمين معلوف ، وهو كاتب لبنانى يعيش فى باريس ويكتب بالفرنسية، ومن أشهر رواياته " ليون الأفريقى" و " سمر قند" . والأولى يصور فيها نهايات الحكم العربى فى الاندلس، منذ خمسمائة سنة، من خلال أسرة عربية، حيث نرى دقائق الحياة اليومية العادية فى الاندلس فى ذلك الوقت:طقوس الحياة اليومية من مأكل ومشرب وملبس،العادات والتقاليد، التركيب الإجتماعى للمجتمع فى تلك الفترة.. ونفس الشئ نجده فى رواية " سمر قند" وهى عن حياة الشاعر العظيم وعالم الفلك والرياضيات عمر الخيام حين ذهب إلى مدينة سمر قند فى القرن الحادى عشر. إن كتب " التاريخ" تهتم بالأحداث السياسية وأخبار الملوك والحكام، ويتلوّن كاتبوها غالباً بلون ملوكهم وحكامهم. أما يوميات الناس العاديين فإنها تصور حياة الناس العادية واليومية، إنها تاريخ من لا تاريخ لهم.

وأعتقد أن قيمة كتاب إستير تسيمرلى – هارتمان تأتى فى هذه الحدود .

طبعاً هناك ملاحظات حول الكتاب، فسوف ترى أن معرفة إستير الأساسية بالمجتمع السكندرى فى الأربعينات من القرن العشرين تتركز فى الجاليات الأوربية التى كانت تعيش فى الإسكندرية فى ذلك الوقت. أما معرفتها بالمجتمع المصرى فتكاد تنحصر فى طبقة الباشوات، ثم فى طبقة الخدم، والباعة فى أسواق الإسكندرية.

وُلدت استير تسيمرلى فى الإسكندرية عام ١٩٣٤ وعاشت فيها حتى عام ١٩٥٠ مع أسرتها حتى قررت الأسرة العودة إلى الوطن الأم : سويسره.

ولعل أهم ما يُلفت النظر فى كتاب إستر أنها ترى الحياة فى الأسكندرية بعين غربية تلحظ أموراً لا نلحظها نحن. إن ملاحظتها عن رجل فى مقهى يجلس وأمامه فنجان القهوة يرتشف منه ببطئ وهو غارق فى التفكير.. هذا المشهد الذى لا يلفت إنتباهنا يراه الغربىّ واضحاً ويرى فيه دلالات على معنى الزمن "فى الشرق". أيضاً مما يلفت إنتباه هذه الفتاة السويسرية كيف يجفل الحصان ، الذى يجر عربة، لدى سماعه بوق سيارة.

ملاحظة أخرى ذكرتنى بقصة :" بالأمس حلمت بكِ "للكاتب الروائى بهاء طاهر عندما تحكى إستر كيف ترك والدها العمل فـــى "مصحة فؤاد الأول" فى حلوان حوالــــى عــام ١٩٣٣" لأن وكيــل الوزارة الذى كان يسانده ترك منصبه".. فرأى أبى الخطر القـــادم وهو أن يتورط فى لعبة التآمر الشرقية التى لم يكن يجيدها" !! إنها نفس النظرة الغربية إلى الشرق: فهو مستودع السحر والغمـــوض والتآمر.

على أى حال فإن كتاب إستر تسيمرلى - هارتمان يبقـــى وثيقة لها قيمتها عن الحياة فى الإسكندرية فى أربعينـــات القــرن العشرين.

شوقى فهيم

القاهرة ــ يونيو ١٩٩٨

من سويسرة إلى حلوان.. ومن حلوان إلى الأسكندرية

فى حياة الإنسان ثمة مشاهد تتحرك وتطفو على سطح الذاكرة رغم مرور عشرات السنين.

كنا نعيش فى الإسكندرية في الأربعينات من القرن العشرين، وكنت أذهب كثيراً إلى سوق الإبراهيمية. وفى حى السوق كان يسكن مواطنو بلدان البحر المتوسط فى منازل تتكون من طابق أو طابقين. وكان من بين هؤلاء ــ بالإضافة الى المصريين ــ اليهود والشوام واليونانيون والمالطيون والأرمن والإيطاليون وكثيرون من بلدان البحر المتوسط.

وبينما كان صوت المغنى الفرنسى "تينو روس" ينبعث من إحدى النوافذ مردداً أشهر أغانيه، كانت بعض الفتيات يقفن أمام منازل قديمة ويتبادلن الشتائم باللغة العربية أو اليونانية أو الإيطالية ، بينما كانت إحدى بنات الشام تقف على مقربة منهن وقد فهمت كل حديثهن وأخذت تضحك من قلبها.

هذا المشهد يشكل علامة أساسية فى حياة وشخصية مدينة الإسكندرية فى ذلك الوقت.

والآن دعونى أحكى لكم كيف ساقتنى الأقدار لأعيش فى مصر، وبالذات فى الإسكندرية التى ولدت بها.

كان أبى، إريش تسيمرلى، طبيباً للأمراض الصدرية. أتـــم دراســـة الطب فى بازل بسويسرة، ثم التحق بمستشفى "سانت مـــــارى " بلنـــدن حيث حصل على زمالة الأطباء الإنجليزية.

وفى لندن التقى والدى هناك بالدكتور برنارد فون ليزين، وشعر أن الحياة قد أقبلت عليه عندما عرض عليه الأخير أن يحل محله فى إدارة مصحة فؤاد بحلوان ـــ إحدى ضواحى القاهرة.

فى ديسمبر ١٩٢٩ رحل أبى الى القاهرة، وقـــد اســـتغرقت رحلتـــه البحرية من جنوة إلى بورسعيد أربعة أيام. وهكذا صار موظفـــــاً لـــدى الحكومة المصرية فى عهد الملك فؤاد، الذى كان يستقبله مرة كل عـــام بقصره ليعرض عليه والدى تقريراً بسير العمل فى المصحة.

أما دكتور برنارد فكان أول سويسرى يُستدعى الى حلوان لكى يحول فندقاً قديما فخماً يحتوى على ٥٠٠ سرير الى مصحة علـــى الأســـلوب السويسرى.

وصار أبى ومعه ثمانية مساعدين يمارسون عملهم فى خدمة ١٥٠ مريضاً.

وقضى أبى هناك ثلاث سنوات، عاش خلالها أطرف أحداث وقعت له خلال حياته.

لم تكن مهمة أبى يسيرة، ولكنه استطاع بمرور الزمن أن ينجح فى خلق تعاون جيد وطيب مع الجميع. وشيئاً فشيئاً ارتفع عدد المرضى من ١٥٠ الى ٤٥٠ مريضاً، كان أهمهم مرضى الدرجة الاولى، فمن خـــلال هؤلاء كان يتم توفير تمويل رعاية مرضى الدرجة الثانية والثالثة.

ومن خلال وظيفته بحلوان كان يتم تكليف أبى بالسفر لبضعة أيـــام الى "أوسلو" للمشاركة فى مؤتمر "مرضى الســـل"، كممثـل للحكومـة المصرية.

ولما كان أبى قد اعتاد الحياة المرتبة فى المجتمع السويسرى، فإنه واجه صعوبة كبيرة للتكيف مع الحياة فى أرض الفراعنة. ففى إحـــدى رسائله الى زوجته كتب يصف الجهد الكبير الـــذى يبذلـه مســاعدوه للالتزام بالمواعيد المقررة.

عند وصول أبى الى حلوان لم يكن العمل على تحويل القصر الفخـــم الى مصحة قد إنتهى بعد، فكان يحدث أن يقضى مرضى ـ فـــى حالـــة حرجة ـ ساعات طويلـــة للوصـــول الـــى المســتشفى، دون إتصـــال بالمستشفى لتحديد موعد دخولهم، ولذلك لم يكن من النـــادر أن يعـــود هؤلاء ثانية من حيث أتوا لعدم توافر أسرة لهم.

كما كان أبى يقضى وقتاً طويلاً فى تعلم اللغة العربية.

وكان الحال فى تعلم العربية، كما هو بالنسبة للألمانية الفصحى فالعربية الفصحى تستخدم للكتابة فى المقام الأول. أما لغة الحياة اليومية فكانت بالأحرى لهجة محلية، التى كنا نسميها فيما بيننا لغة المطبخ.

ولما كان أبى يريد تعلم الفصحى أولاً، فقد استطاع بحماس وافر وبمساعدة مدرس خاص أن يتمكن من هذه اللغة الصعبة. وبالاضافة الى كُتب القواعد كان ابى يستخدم النسخة العربية من الإنجيل كتاباً للمطالعة، فكان يستطيع من خلال ذلك مقارنة آياته بما ورد فى الأناجيل الألمانية أو الإنجليزية.

وأثناء وقت فراغه القصير كان أبى يقوم باستطلاع الصحراء المجاورة للمصحة من فوق أحد الجمال. وبالاضافة الى ذلك كان يحتفظ فى منزله بقرد صغير " شقى" يدعى "جاكى". ولكن بمرور الوقت صار القرد يسبب متاعب لأبى أكثر مما يسببه له من تسلية، وهكذا اضطر للتخلى عنه.

بعد زمن يسير من التحاق أبى بعمله نشبت " أزمة الثلاثينات" الاقتصادية، فتم وضع المصحة تحت إشراف وزارة أخرى، وهكذا فقد أبى رئيسه المباشر وصديقه فى الوزارة، الذى كان يسانده ويدعمه فى كل المصاعب التى كانت تعترض طريقه، وكان عقده قد انتهى فرأى الخطر القادم، وهو أن يتورط فى لعبة التآمر الشرقية، التى لم يكن يجيد التعامل معها.

وفى اليوم الذى استدعى فيه لمقابلة الوزير الجديد لتجديد عقده لمدة ثلاث سنوات تالية، قدم أبى له إستقالته، وقرر الإنتقال الى الإسكندرية.

لم يكن قرار الاستقالة من تلك الوظيفة المرموقة قراراً سهلاً، فقد كان أبى فى ذلك الوقت قد قرر الزواج.

ففى الصيف السابق على ذلك كان أبى قد سافر الى سويسرا حيث تعرف هناك على أمى؟ وكان عمره حينذاك ٣٦ عاماً، ولم يكن أمامه سوى أسبوعين للعودة لعمله فى المصحة المصرية، الذى لم يكن سيستمر فيه سوى شهور قليلة.

وهكذا كان عمر تعارف أبى وأمى قبل الزواج لا يتجاوز ثلاث أو أربع لقاءات وتبادل بعض الرسائل.

بعد ميلاد أبى بثلاث عشرة سنة ولدت أمى فى ضاحية من ضواحى مدينة بازل. وكانت أمها وإخوتها الستة من عائلة عريقة ومرموقة من عائلات بازل. وكانت أمى تقضى أجازات لطيفة ومرموقة وسط عائلتها الكبيرة.

وبعد إنقضاء طفولتها السعيدة عاشت سنتين فى باريس، فقرأت كلاسيكيات الأدب الفرنسى وغرقت فى عالمهما الثقافى. وبعد ذلك قضت أمى عاماً لدى عائلة أحد الضباط فى إنجلترا حيث درست عدة دورات فى جامعة "نوتينجهام" فقد كانت تحب اللغات الأجنبية مثل أبى. والى

جانب هذه الموهبة كانت تجد سعادة فى العناية بالأمور المنزلية، فالتحقت بمدرسة "الأعمال النسائية" فى زيورخ، وحصلت منها على دبلوم " التدبير المنزلى". وفى هذه الأثناء تعرفت على والدى أثناء زيارتها لأحد معارفها، فقررا الإقدام على خطوة الزواج، وتمت الخطوبة قبيل عودة أبى الى مصر.

وهكذا حدث فيما بعد فى يوم بارد من أيام شتاء عام ١٩٣٣ أن سافرت أمى بصحبة والدها الى فينيسيا، وهناك ودعته بقلب حزين، لتبدأ رحلتها عبر البحر المتوسط، وبعد أيام قليلة وصلت الى الإسكندرية. كان أبى فى غاية السعادة للقاء خطيبته الشابة أما أمى فقد وجدت صعوبة فى العثور على أبى وسط زحام غفير من إناس كثيرين من ألوان وأجناس مختلفة.

وبعد سبع ساعات من السفر خلال الدلتا الخصيبة (صومعة غلال مصر) وصل الإثنان الى القاهرة، حيث تزوجا هناك فى الكنيسة البروتستانية الصغيرة، أما مراسم الزواج فقد جرت باللغة الفرنسية. ثم مضيا لقضاء "شهر العسل" فى فندق ميناهاوس عند سفح الهرم.

كان هذا الفندق العريق قد تم بناؤه بمناسبة إفتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ ليكون مقراً للضيوف من أمراء ونبلاء أوروبا الذين قدموا الى مصر للإحتفال بهذه المناسبة، وكان من بين هؤلاء الضيوف الأمبراطورة أوجينى.

أما " أوبرا عايدة" التى كلف بتأليفها جوزيبـــى فـــردى الموســيقى الإيطالى، فإنها لم تعرض أمام هذه النخبة أثناء إفتتاح القناة كما كـــان مقرراً، وانما تم عرضها لأول مرة بالقاهرة عام ١٨٧١. ومـــن خـــلال نافذتهما بالفندق أخذ أبى وأمى يستمتعان بـــالنظر الـــى هـــرم خوفـــو العملاق.

ولما كان تسلق الأهرامات مسموحاً به حينذاك، فقد اســـتطاعا مـــن فوق قمتها رؤية منظر لاينسى، حيث إنبسطت أمامـــهما صحـــراء بـــلا نهاية، ورأيا كذلك مدينة الأموات ممفيس ، وكذلك المنطقـــة الخضـــراء التى تحدها.

وبعد أسبوعين سعيدين سافر والداى (هذه المرة كزوجين شـــابين) الى الاسكندرية، هذه المدينة التى شهدت طفولتى السعيدة وصباى أيضا.

فى منزل مكون من عدة طوابق ولا يبعد كثيراً عن وســـط المدينـــة الصاخب، استأجر والداى شقة مشمسة، خصص أبى جزءها الجنوبـــى المطل على شارع سعيد الأول ــ لعيادته.

أما فى الجزء "البحرى" منها فكانت هناك شرفة صغيرة، كنا نرى من خلالها رصيف الميناء الرائع، الذى يمتد ــ كنصف دائرة ــ لعدة كيلـــو مترات ليحيط الميناء القديم الحالم.

ولما كان أبى لا يتكسب كثيرا من عمله فقد عاش فى البداية مع أمى حياة متواضعة. ففى المساء كانا يخرجان للنزهـــة علـــى "الكورنيـــش" ويمران بالمطاعم الفخمة والفنادق الكبيرة وكانا يفتنان بالغسق، حيـــن تغرب الشمس، وأثناء ذلك كانت السيارات الحديثة تمـــرق بجوارهمـــا بسرعة.

وعلى ناصية تالية تظهر أمامهما عربة " حنطور" كان ســـائقها لا يكف عن جلد حصانه العجوز بسوط فى يده.

أما فى شهور الشتاء، عندما كانت الرياح الباردة تهب من كل اتجاه، فتجعل الكورنيش خاليا من الناس، كان والداى غالبا ما يذهبـــان الـــى السينما، حيث كانا يفضلان مشاهدة الأفلام الفرنسية. وكانت أمى تفضل اصطحاب أبى للذهاب للتسوق بعد العشاء، فكثير من محـــلات المـــواد الغذائية كانت تفتح ابوابها حتى ساعات متأخرة من الليل.

وأحيانا كانا يركبان الترام حتى "الشاطبى" حيث ينضمـــان للحفـــلات الكثيرة التى كان ينظمها النادى السويسرى، وهناك كانا يقضيان وقتهما فى الاستماع الى محاضرة، او مشاهدة فيلم سويسرى، او فى الرقـــص، او فى التواجد ــ ببساطة ــ بين سويسريين آخرين.

وكان والداى قد تعرفا على زوجين بريطانيين، كانا جـــارين لـــهما يتمتعان بجاذبية كبيرة :

كان لكليمنت إهتمامات علمية، وبالاضافة الى نشاطـــه فـــى تجـــارة القطن، كان يعمل أيضا مراسلا لصحيفة التايمز أما "إيفا " فكانت أحيانا تعمل ككاتبة حرة.

كان كليمنت وأيفا يقضيان الصيف فى "شاليه" لهما علـــى شـــاطىء العجمى، الذى يبعد ١٠ كيلو مـــترات غربـــى المدينـــة، وهنـــاك كانـــا يستضيفان أبى وأمى لعدة أسابيع كل صيف، حيث كانا يتمتعان بأيـــام لا تنسى على شاطىء البحر الهادىء ذى المياه الفيروزية.

شيء من التاريخ

الآن وقبيل بدء عام ٢٠٠٠، تمتد مدينة الاسكندرية حوالى ٢٠ كيلو متراً على ساحل البحر المتوسط. وهى ثانى أكبر مدن مصر بسكانها الذين يقترب عددهم من الخمسة ملايين.

وكما يتضح من اسمها فانه قد تم تأسيسها بأمر من الاسكندر الأكبر فى القرن الثالث قبل الميلاد.

وبعد موت الاسكندر وصل البطالمة الى سدة الحكم، وتحت حكمهم صارت الاسكندرية أهم مدينة تجارية فى العالم، فضلا عن انها صارت مركزاً للحضارة الهلينية، واستطاعت شخصيات اغريقية هامة دخول التاريخ من أوسع أبوابه.

ففى عهد بطليموس الأول تم تأسيس أهم مكتبة عرفها العالم القديم، كانت تحتفظ بحوالى تسعمائة ألف بردية إلا أن الحريق، الذى شب بالمكتبة وأشعله الجيش الرومانى، استطاع تدمير كافة الكتب القيمة.

وأثناء حكم بطليموس الثانى شيدت واحدة من عجائب الدنيا السبعة : منارة الاسكندرية التى كانت ترتفع لاكثر من ١٥٠ متراً، وعرفت باسم "فاروس" وظل هذا الفنار الشهير يقاوم شراسة البحر حتى القرن الرابع عشر حين تهاوى بنيانه إثر زلزال شديد. وبعد مائة عام وفى نفس موقع الفنار وببقايا حطامه أقيمت قلعة قايتباى، التى يمكن زيارتها حتى

اليوم. وهناك شخصية إغريقية هامة أخرى، اطلق اسمها على حى كامل بالاسكندرية وخلدها شكسبير وجورج برنارج شو، هى : كليوباترا.

* * * * *

إلا انه لم يبق من الاسكندرية القديمة سوى القليل، نذكر من ذلك عمود السوارى (المعروف ايضا بعمود بومباى)، الذى شيد من حجر الجرانيت الوردى ويبلغ ارتفاعه ٢٧ متراً، كذلك بعض التحف الفنية الكبيرة والصغيرة والتى يحتفظ بها المتحف اليونانى الرومانى.

وفى الوقت الذى كانت تتمتع فيه كليوباترا بعلاقة عاطفية مع يوليوس قيصر كان تعداد شعب الاسكندرية يربو على نصف مليون نسمة، ولكن الاوبئة واضطهاد المسيحيين المتكرر استطاعا القضاء على جزء كبير من سكان الاسكندرية فى بداية القرن الثالث الميلادى.

وفى بداية القرن السادس الميلادى احتل الفرس مدينة الاسكندرية. وبعد ذلك بأعوام قليلة احتل العرب المدينة، وانتقلت عاصمة البلاد الى القاهرة.

ولم تزدهر الاسكندرية ثانية الا فى عهد محمد على، ذلك الألبانى الذى صار واليا على مصر فى بداية القرن التاسع عشر واستطاع ان ينتزع الاسكندرية التى نقص عدد سكانها الى عدة آلاف فقط - من سباتها العميق.

ففى عهد محمد على تم شق ترعة المحمودية التى ربطت الاسكندرية بالدلتا وتم من خلالها استصلاح مساحات شاسعة من أراضى الاسكندرية.

ونستطيع أن نقول أن محمد على كان المؤسس للاسكندرية الحديثة.

* * *

كانت الولايات الجنوبية بأمريكا الشمالية تتمتع حتى عام ١٨٦٠ بمكان الصدارة فى تجارة القطن، الا ان مزارعها تعرضت لخسارة فادحة بسبب الحروب الانفصالية، فضلا عن ان الحصار الاقتصادى المفروض على ولايات الجنوب منعها من تصدير القطن الى انجلترا.

وهنا صار لمصر موقع الصدارة فى زراعة وتجارة وتصدير القطن طويل التيلة ذى الشهرة العالمية، فازدهرت تجارة القطن ازدهاراً عظيما وتنتج عن ذلك انفتاح الاسكندرية على العالم. وقد عرف محمد على أهمية الأجانب للبلاد، فرحب بمقدمهم اليها. فقدم اليها معظمهم للتجارة فى القطن، وهاجر اليها بعضهم بسبب ظروف الحرب أو الاضطهاد*[1] أو الفقر السائد فى بلادهم.

وهكذا كان ازدهار تجارة القطن سبباً فى النمو المطرد للمدينة. فقد تم تأسيس العديد من شركات تصدير القطن. كان من بينها ثلاثة شركات هامة ــ تعمل فى مجال تصدير هذه المادة الخام الهامة ــ عرفت باسم رنيهارت وكوير وفون بلاتنا، وكانت شركات سويسرية خالصة. وقد

---

[1] تقصد الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى اوروبا (المترجم)

أدى ذلك الى هجرة كثير من السويسريين الى الاسـكندرية بحثـاً عـن الرزق فى نهاية القرن الماضى وقبل بداية الحرب العالمية الأولى.

كان لأثرياء تجار القطن أثر عظيم على الحياة فى الاسـكندرية فقـد شيدوا لانفسهم فيلات فخمة ببساتين ساحرة، سمح للعامة بارتيادها فيما بعد. فحديقة "أنطوينادس" بأحواض زهورها المختلفة الالوان، والمزدانة بنافورات ذات سباع تتدفق منها المياه وبتماثيل اغريقية ونخيـل وارف الظل تعد من أجمل حدائق مصر. كانت هذه الحديقة ملكاً لاسرة يونيانية ثرية، ثم قامت فيما بعد باهداء هذه الحديقة لمدينـة الاسـكندرية. أمـا حديقة الورود التى كانت اقل حجماً واكثر شاعرية، فكان المرء يستمتع فيها بعبق الورود ـ المختلفة الالوان ـ على مدار العالم كله.

وكذلك "حديقة نوشا" الواقعة على ترعة المحمودية التى كانت تضـم مقهى وحديقة حيوان كانت أحد أماكن الترفيه المفضلة.

أما فى حى الشاطبى، حيث انشئت المقابر التى تعـود إلـى عصـر البطالسة الأول، فقد صارت المقابر اليهودية والمسيحية به شاهدة على عالمية مدينة الاسكندرية وقد تم الكشف حديثا عن نصوص على المقابر باللغة العبرية والايطالية والفرنسية والاغريقية.

أما اليهود فقد عاشوا فى الاسكندرية منذ تأسيسها على يد الاسكندر الأكبر.

وكانوا يشكلون فى القرن الأول الميلادى ثلث مجموع السكان حينذاك، وفيما بعد انضم اليهم أيضا اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد فى اوروبا وفى اماكن اخرى. فكان من نتيجة ذلك ان صار جزء كبير من يهود الاسكندرية ذوى أصل مصرى بينما انتمى الآخرون إلى دول البحر المتوسط وشمال اوروبا.

وبعد تسلم هتلر للسلطة هاجر الى الاسكندرية عدد كبير من اليهود. وبالاضافة الى التجار الاثرياء والمثقفين كانت الجالية اليهودية تضم ايضا موظفين صغارا وعمالا يدويين. وإلى جانب المعابد اليهودية الكبيرة كان يوجد بالطبع مدارس يهودية وجمعيات عديدة كما كانت هناك مستشفى، قام والدى بعلاج بعض المرضى فيها.

كانت الجالية اليهودية أهم الجاليات نظراً لعددهم الضخم فكان من اعضاءها كبار رجال الصناعة وأثرياء تجار القطن أما تجار البقالة فكانوا كلهم ـ تقريباً ـ من اليونانيين. وكانت محلات الحلويات الشهيرة بالمدينة مثل "أثينيوس" و"باسترودوس" ملكاً لليونانيين.

أما محل الأسماك الشهير، والذى مازال موجوداً حتى اليوم، فقد أسسه فى العشرينات من هذا القرن أحد اليونايين واسمه " زيفريون".

كما أسس يونانى آخر مقهى البن البرازيلى، الذى مازال أحد الاماكن المحببة لاهل الاسكندرية.

ولم يكن يقدم فقط القهوة الطازجة وانما ايضا مشروب الشوكولاتـــة المثلج الممتاز الذى مازلت اتذكر مذاقه حتى الآن.

ويرتبط مقهى البن البرازيلى فى ذاكرتى بحكايات أبى عندمـــا كـــان يحدثنى عن ازدهار انتاج البن البرازيلى، لدرجة انهم كانوا يستخدمون البن كوقود لقطارات نقل البن بدلا من الفحم.

فى الاسكندرية ربما تستخدم أربع لغات فى اليوم الواحد :

وبجانب مدارسهم العديدة كان من الطبيعـــــى أن يقيـــم اليونـــانيون مستشفى خاصاً بهم اسموها "كوتسيكا".

ومثل بقية المهاجرين الى الاسكندرية كان. اليونانيون يتكلمون لغات عديدة. ولم يكن من النادر ان يعطى المرء فى الصباح أو امره الى خادم المنزل باللغة العربية ثم يتحدث مع الكوافير باللغة اليونانية ويتكلم فـــى محل الاحذيبة باللغة الايطالية.

أما فى المساء، ومع الشاى واثناء لعب الـــبريدج أو البولـــو فكـــان الحديث مع الأصدقاء يدور بالانجليزية، وفى الليل كان المـــرء يســـتقبل ضيوفه مرحباً بهم باللغة الفرنسية. وكان الايطاليون يشكلون ثانى أكبر الجاليات بعد اليونانيين. فقد دفعت الأوضاع الاقتصادية المتأزمـــة فـــى نهاية القرن الماضى عدداً كبيراً منهم الـــى الـــهجرة الـــى دول البحـــر المتوسط القريبة، فأقام عدد منهم فى الاسكندرية.

وبجانب عائلات مرموقة وثرية تسكن الفيلات الفخمة، كان يعيش عمال يدويون منهم الإسكافى والخياط والميكانيكى فى بيوت بسيطة ذات طوابق متعددة.

وأختلط التجار بأهل البلد فصارت لبعض التعبيرات العربية مكانة هامة.

فعندما كانت أمى تسمح لى بمرافقتها الى السوق كنت أسمع التجار العرب ينادون على فاكهتم وخضارهم فهذه فراولة وتلك فاصوليا ــ وكان أبى يضطر احيانا لاصلاح سيارته الـ "أوبل القديمة" لدى ميكانيكى مصرى. وفى اليوم التالى كان يعود "بالعربية" بعد اصلاحها.

وكان الكثير من الأرمن، الذين نجوا من مذابح الاتراك فى بداية هذا القرن، وكذلك الروس الذين هربوا بعد قيام الثورة[1] ، يعدون أيضاً من المزيج الملون للمجتمع السكندرى. وحتى بداية الحرب العالمية الثانية كان يسكن الاسكندرية كثير من الألمان أيضاً، وهكذا وُلد ــ على سبيل المثال ــ رودلف هايس ــ نائب هتلر ــ فى الاسكندرية.

وكان السويسريون يعدون من الجاليات الصغيرة فى هذه المدينة. فاثناء الحرب العالمية الثانية كان يعيش هناك أكثر من ألف سويسرى.

---

[1] ثورة أكتوبر ١٩١٧

وكان لنا النادى الخاص بنا " النادى السويسرى بالاسكندرية" الذى كنا نحتفل فيه بمناسبات اجتماعية عديدة.

أما التلاميذ السويسريون البالغ عددهم ستون تلميذاً فكانوا يدرسون بالمدرسة السويسرية بالاسكندرية. (1)

وبجانب العربية كانت اللغة الفرنسية هى اللغة السائدة منذ عام ١٨٨٠م. ثم إنتشرت الانجليزية بعد ذلك اثناء الحرب العالمية الثانية.

وكانت الفرنسية هى صاحبة النصيب الأعظم فى التعليم الاجنبى.

وكانت الفتيات تستطعن الدراسة بمدرسة الليسيه الفرنسية أو فى إحدى المدارس الكثيرة التى تديرهاالراهبات الكاثوليكيات مثل مدرسة : **"Soeurs St. Vincent de paul"** أو مدرسة **"Immaculee conception"**، التى كان اسمها يمثل لى ـ كفتاة صغيرة ـ لغزاً.

كما كانت الفرصة متاحة أمامهن ليدرسن فى المدرسة الداخلية العظيمة: **"Notre Dame de Sion"**

أما الفتيان فكانوا يفضلون الدراسة بمدارس يشرف عليها الرهبان كمدرسة "كلية سان مارك " ومدرسة الفرير سانت كاترين أو مدرسة الليسيه.

---

(١) Ecole swisse de' Alexandria

أما إذا شاء الآباء تعليم ابناءهم على الطريقة الانجليزية فإنه كـــان باستطاعتهم ان يرسلوهم الى "كلية فيكتوريا ــ للبنين ــ ، أو المدرسة الاسكتلندية ــ للبنات أو الكلية الانجليزية للبنات، وكلها بالاســـكندرية. وبالاضافة الى المدارس اليونانية والفرنسية والانجليزية فقد كانت هناك مدارس أخرى منها :

" **Ecole des soevrs Armeniennes Catholique de L'Immaculee conception"**

ومدرسة **"Union Juive pour L'Enseignement"** والمدرسة الألمانية (١) ، والمعهد الأيطالى للبنين"دون بوسكو" . ومن الطبيعـــى ان يكون بالاسكندرية ايضا مدارس مصرية مثل : "الفاروقية الاسلامية" و"بنات الأشراف" وغيرهما. وكان هناك جنسيات وأديان مختلفـــة مـــن أرمن ومالطيين الى القبارصة الذين كانوا على العقيـــدة الارثوذكســية اليونانية، أو الكاثوليكية اليونانية، بالاضافة الى مهاجرين مـــن حلــب ودمشق وبيروت وكان اغلب هؤلاء الســـوريين واللبنـــانيين يتمتعـــون بالجنسية المصرية، الا انهم كانوا يعتزون بعقيدتهم الكاثوليكية.

وبفضل تنوع الجنسيات والجاليات كان من الطبيعى أن يوجد هنـــاك ايضا تنوع فى الحياة الاجتماعية والثقافية.

فكانت هناك جمعيات وأندية لمختلف اللغات والمذاهب. بـــدءاً مـــن "نادى الاسكندرية الرياضى" الراقى ونادى الفروسية المصرى التابع له، والنادى اليونانى للرياضة واليخوت، وحتى نادى : **"Cercle de la Jeanesse Greeque orthodoxe Egyptienne"** وكذلك بـــالطبع النادى السويسرى. وكانت النوادى الانجليزية والفرنسية لليخوت تضـــم

أعضاء كثيرين. وبالرغم من أن السويسريين ليسوا من الشعوب التـــى لها علاقة بالبحار الا اننا كنا نملك نادياً لليخوت خاصاً بنا حتى بدايـــة الخمسينات كما كان لدينا أيضاً نادى للرماية، يتردد عليه الملك فـــاروق أحيانا كثيرة.

وكانت الحياة الثقافية بالاسكندرية تضم مجموعة عظيمة من الفنانين أصحاب الشهرة العالمية.

وفى شهور الشتاء كان لدينا الفرصـــة لحضـــور عـــروض فـــرق "Ballets de champs Elysees" و "Scala di Milano": والكوميدى فرانسيه.

وكان الواقع اللغوى والثقافى بالاسكندرية عبارة عن لوحة فسيفساء من حضارات البحر المتوسط، كانت متنوعة وغنية بألوانها تماماً مثـــل مجموعة البهارات التى تقدمها الأسواق الشرقية.

* * *

هكذا كانت الصورة المختلفة الالـــوان لمدينـــة الاســـكندرية التـــى ستتخذها أسرتى مواطناً لسبعة عشر عاماً قادمة.

كان تعداد مدينة الاسكندرية ــ حين استقر بـــها والـــداى ــ يبلـــغ ٨٠٠,٠٠٠ نسمة.

وكان مرض السل متفشيا فيها حينذاك، ولم يكن بها طبيب للأمراض الصدرية. فكان علاج السل يقتصر فى الأساس على إعطـــاء المريـــض دواء لعلاج الحمى.

ولما كان مرض السل يعتبر مرضا خبيثا ومرعبا وكان المصابون به يحرصون على إخفاء مرضهم، فقد شكل ذلك صعوبة امام أبى فى البداية، فقد كان ينقصه عنصر هام، الا وهو الدعاية "الشفوية" لعيادته. وهكذا واجه أبى مشقة تأسيس عيادته الخاصة كطبيب أمراض صدرية.

وبجانب عيادته والعمليات التى كان يجريها فى مستشفى "الأنجلو سويسرية" فانه قام بتأسيس وحدة كفالة اجتماعية للفقراء فى المستشفى المذكور. وهناك كان يقضى النهار كله، وكان ذلك يجعله راض النفس بالرغم من مكسبه المادى الضئيل. ومن خلال ذلك كانت شهرته تزداد بين الأهالى، مما جعل بعضهم يترددون بعد ذلك على عيادته فى شارع سعيد الأول.

وأحيانا ما كان يقوم المستشفى اليهودى أو اليونانى وكذلك المستشفى المصرى "المواساة" بعلاج بعض الحالات. وكان أبى يعانى من عدم انتظام حياته العملية نظرا لعدم إلتزام المرضى بالموعد الذى ضربه لهم، ويرجع ذلك لاختلاف العرب عنا ـ كأوروبيين ـ فى فهمهم لمعنى الوقت ومع ذلك فقد اتسع نشاط عيادته على نحو عظيم بمرور الزمن.

أما مرضاه فكان بعضهم فلاحين من المناطق المجاورة والبعض الآخر من العمال المصرين بنفس المدينة، أى خليط من كافة البشر، كانوا يمتنون بشدة لأقل مساعدة، هذه المساعدة التى لم يكونوا ينتظرون من مواطنيهم أنفسهم. وفى يوم ما فى منتصف الأربعينات

استقبل أبى بعيادته مريضا هاما، لم يكن سوى والدة الملـــك العراقـــى الشاب فيصل، الذى اغتيل بعد سنوات قليلة[1]

وذات مرة استقبل أبى امرأة بدوية كانت تعانى من مـــرض عضـــال وبعد فحصها أخبرها أبى بأنها فى حاجة الى إجـــراء عمليـــة مرتفعـــة التكاليف وسألها إن كان باستطاعتها تدبير المال الكافى لذلك، وبـــالرغم من استعداد أبى للتنازل عن جزء من التكاليف ألا أن المبلغ المطلـــوب كان كبيرا، وهنا نظرت البدوية إلى أبى وقد رفعت حاجبيها دهشة وهى تشير الى ذراعها الذى غطته أساور ذهبية من المعصم حتى الكـــوع ، وأخبرته بأنه ما عليه سوى إخبارها بعدد الأساور التى تحتاجها تكاليف العملية فى ذلك الوقت إذ كانت غالبية الناس لا تعرف القراءة والكتابة ، فكانوا يخشون إيداع أموالهم بالنبوك وبدلا من ذلك كانوا يشترون بهذا المال ذهبا أو أراض زراعية .

وكان من المألوف أن تحمل المرأة ثروتها معها وذلك علـــى هيئـــة "كردان " أو سوار او خلخال او كذلك حلق للاذن أو للأنف ، أما الرجال فكانوا يتباهون بأسنانهم الذهبية .

كان أبى سعيدا بأن مرضاه ينتمون لجنسيات عديدة ، وكان ذلك يتيح له التحدث يوميا باللغات الفرنسية والانجليزية والايطاليـــة والعربيـــة . فبدأ وهو فى الاربعين من عمره تقريبا ، بتعلم اليونانية الحديثة . وعلى هذا النحو وبمرور الزمن صار فى استطاعته التفاهم مع كل مرضاه .

---

[1] – قتل الملك فيصل، ملك العراق السابق فى أحداث ثورة ١٩٥٨ وبعدها أعلن النظام الجمهورى فى العراق.

وكم كان أحد الرهبان اليونانيين سعيداً لعثوره على طبيب سويسرى يستطيع محادثته بلغته الأم .

صرنا ثلاثة

عندما بدأ شتاء معتدل فى طرق الابواب ، كان الوقت قد حان لتقوم أمى باعداد غرفة للابناء .

كان مولدى فى مستشفى الأنجلو سويسرية وقام الأب فيدمار بتعميدى فى كنيسة البروتستانت بالاسكندرية .

وتم تحرير شهادة ميلادى باللغة العربية واللغه الفرنسية .

وبالفرنسية ايضا ظهر اعلان عن ميلادى بالجريدة السويسريه

“ Journal suisse d’Egypt et du proche orient “ وكانت هذه الجريدة هى الصحيفة الرسمية للجمعيات السويسرية فى مصر وسوريا وفلسطين .

وبمناسبة هذا الحدث السعيد جاءت جدتى – لأمى – من سويسرا ، لكى تقيم عدة أسابيع بجوار أول حفيدة – مصرية – لها .

وعندما كبرت ونما شعرى الأشقر وصار بمقدورى الجلوس فى عربة الأطفال صارت أمى تأخذنى كل يوم – متدثرة بمعطفى الصغير الأزرق وبقفازات بيضاء فى يدى – لنزهة الى البحر لتنسم هواء البحر

العليل. وكان على أمي ــ حتى بعد مولدى ــ أن تجتهد أحياناً كربة بيت ماهرة لكى تعتاد على اسلوب الحياة فى مصر .

فقد كان كل شئ مختلفاً تماما عما نشأت عليه فى الماضى ، أطفال متسولون بملابس مهلهلة وعيون تختفى وراء الذباب[1]، حرارة الجو المرتفعة أثناء الصيف حيث مؤشر الحرارة يرتفع أحياناً إلى ٣٧ درجة بينما كانت الرطوبة تبلغ نسبة ٩٨%.

وبالأضافة لذلك فإنه كان غالباً ما تحدث مشاكل مع الخدم فمن المألوف فى مصر أن كل إنسان ميسور الحال كان لديه خادم (سفرجى) أو خادمة، وكان لبعض معارفنا فوق ذلك طباخ وبستانى وكان لبعضهم أيضاً سائق. أما أفضل من كانوا يقومون بذلك فهم النوبيون – الذين ينتمون لصعيد مصر. وهؤلاء، كانوا يتميزون بلون بشرة داكن على النقيض من المصريين ساكنى شمال الوادى الذين يتميزون ببشرتهم الفاتحة، وكان لبعضهم ملامح تركية .

أما هؤلاء (السفرجية) فكانوا يتمتعون بطول القامة وعزة النفس، وعندما كانوا يجهزون مائدة الطعام كانواغالبا يرتدون الجلاليب البيضاء بحزام أحمر، ويضعون عمامات أو طرابيش صغيرة حمراء على رؤسهم. وعندما كانوا يضحكون كانت ضحكتهم الطفولية تضئ وجههم الأسمر، وكانت خدودهم تتميز بشقوق طويلة .

---

[1] – تتحدث المؤلفة عن أوائل الأربعينات.

ولم تكن هذه الندوب تشوه وجوههم، بل كانت علامة للقبائل التـــى ينتمون اليها.

وكان معظمهم مخلصين لسادتهم الأوروبين، فقد كان حالهم أفضـــل مما لو خدموا لدى مواطنيهم الباشاوات الاثرياء الذيـــن كـــان بعضـــهم يستغلهم أبشع إستغلال .ولكن لم يكن الحظ يحالفنا دائما فى العثور على خادم جيد، وأحيانااما كنا نبحث عنه طويلاً كما نبحث عن إبرة فى كـــوم قش. ولذلك لم يكن غريباً أن والداى ـ فى بدء حياتهم بالاســكندرية ـ توقفا عن البحث عن خدم، بعد أن فشلت جهودهم مع محمد ثم حسن، ثم عبده، ثم على.

وكانا سعيدين عندما قدم لهما أحدهم خادمة يونانينية . وقد احتفظـــا بهذه الخادمة حتى تزوجت، ثم بدءا البحث من جديد.

إن ذكرياتى الأولى تعود الى عام ١٩٣٨، عندما كان عمرى أربـــع سنوات، وسافرت أنا وامى فقط إلى سويسرا، وكانت أمى حـــاملاً فـــى طفلها الثانى، وكانت تريد أن تضع مولودها هذه المرة فى مدينة بازل.

وقد سافرنا وحدنا بدون أبى بعد ان فشل فى العثور على زميل يقوم برعاية مرضاه لعدة شهور.

كانت الباخرة الفاخرة ـ والتابعة لشركة لويد تريستينو والتى تربط الاسكندرية بمدينة تريست ـ تنتظر بصبر فارغ ركابها علـــى مرســى

الميناء. أما أمى فكانت تتطلع بشوق جارف الى لقاء أسرتها فى بازل،و على الجانب الآخر كان عليها تحمل الام فراق الحبيب.

بعد أن ودعت أمى أبى، تمسكت أنا به فتشبثت به بعنف لأنى شعرت بخوف شديد عندما رأيت سلماً معلقاً فى الهواء، كان يقودنا من مرسى الميناء الى الباخرة فقد كانت درجات هذا السلم ــ الذى يشبــــه الســــهم المتحرك ــ عبارة عن ألواح منفرده ربطت من نهاياتها بالاحبال.وكــــان هذا السهم المتحرك يتأرجح لدى كل موجة.

وكانت المسافة بين كل درجة وأخرى تبلغ ٢٥ ســــنتيمتراً تقريبــاً. وهكذا كان خوفى عظيماً من السقوط فى خضم هذا الماء القـــذر. إلا أن أمى هدأت من روعى وامسكت بيدى بحنان وكم كانت ســـعادتى عندمـــا شعرت ثانية بأن أقدامى تقف على أرض صلبة.

وعندما وصلت إلى الكابينة بدأت التعرف بدقة على كل جديد حولى، وتلاشت مخاوفى بعد ذلك عندما قفزت الى حوض السباحة المتلئ بمياه البحر الدافئه .

وبسرعة شديدة مرت شهور الصيف التى قضيتها مـــع أمـــى عنــد والديها فى مدينة " رين " ووالدىّ زوجها فــــى " لوســـرن ". وأقـــترب الصيف من نهايته. وذات عصر يوم مشمس وصلنى خبر بأن أمى قــــد ولدت أخاً لى كنت أتطلع لميلاده. وقد تــــم تعميـــده بأســـم كريســــتون هاينزيش الكسندر.

وبعد قليل كان الوقت قد حان ليلتقى الرضيع الجديد بأبيـــه، وهكـــذا رحلنا ونحن هذه مرة ثلاثة وسافرنا مرة أخرى عبر البحر المتوســـط متجهين الى الاسكندرية .

أربعة فى وطن جديد

اثناء إقامتنا بسويسرا كان أبى قد عثر لنا على مسكن أكثر إتســاعاً فى الاسكندرية .

ولم تكن رحابة المكان هى الدافع الوحيد وراء ذلك، وإنما كان هناك ايضاً أسباب تتعلق بالصحة، فلقد أراد أبى الاستقلال بعيادته بعيداً عـــن المسكن .

وفى موقع خارج وسط المدينة وفى أحد البيوت المنعزلة فى شـــارع مارك أورل رقم ٥٩ بحى كامب شيزار عثر أبى علـــى شقـــة واســـعة مشمسة تتكون من خمس حجرات. كانت المالكة الســـيدة" كـــاى*تحتـــل الدور الأرضى بينما سكنا نحن الطابق الأول .

وكان البيت مطلياً باللون الاصفر، أما خصاص نوافذه فكانت خضراء اللون. وكان هذا البيت قد أنشئ قبل عشرين عاماً، وكان يقـــع وســـط

---

* Caillat

حديقة، كان الاهتمام بها واضحاً، أما واجهة المـــنزل المنتهيـــة ببـــاب الحديقة الأخضر فكانت تطل على ارض فضاء عبارة عن تلال جرداء.

كانت هذه التلال تخفى تحتها شواهـــد حضـــارات غـــابرة طمرتـــها العواصف الرملية المتكـــررة واســـتطاعت أن تغطـــى ـــ بعـــدة امتـــار مستعمرات مدمرة ومهجورة.

ولذلك لم يكن من النادر أن يعثر المرء ـــ بشئ من الحـــظ ـــ علـــى حطام قناديل زيت أثرية أو ما شابه ذلك .

وذات مرة وفى مكان قريب للغاية عثر والدى على أصبـــع صـــدئ لتمثال من البرونز فى الحجم الطبيعى.

واليوم عندما أمر بأحد مواقع الحفر أشعر بدافع ما يجعلنـــى أدقـــق النظر فى المكان لعلنى اعثر على كنز صغير مدفون هنـــاك. وللاســـف كانت هذه التلال تستخدم كموقع لتجميع القمامة .

وهكذا كان بامكاننا أن نطل من الشرفة لنرقب النسور وهى تنقـــض فجأة لتخطف بسرعة ثعابين حيه .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية كانت سيارات الجيب تستخدم هـــذه التلال لاختبارت قدرتها على السير (فى المناطق الوعرة) أما الجـــزء

المخصص لنا من الحديقة، وهو الجزء الخلفى منها فكان سوره يفصل بيننا وبين شارع "مارك أورل" .

وكانت حافة السور العلوية مزودة بشظايا الزجاج الحادة لتحول بيننا وبين زوار غير مرغوب فيهم سواء كانوا حيوانات جائعه أو لصوص.

وكان لابد من وضع هذه الشظايا على السور كله. ففى صباح يوم أحد واثناء ما كنت بالشرفة أنظر إلى باب الحديقة الاخضر إذا بى أرى رجلاً غريباً يتسلق السور بأعصاب باردة. وصادف ذلك وصول البستانى الى هذا الجزء من الحديقة فهاجم الغريب واوسعة ضرباً وشعرت بالأسى تجاه هذا الغريب عندما سمعته يقول للبستانى "دعنى أمضى ولا تبلغ الشرطة فإنى خارج لتوى من السجن وقد هدنى الجوع".

وكان ذلك مستحيلاً فكان لابد من ابلاغ الشرطة، وكان على المجرم المسكين أن يعود مرة اخرى ليقتسم مع أخرين زنزانه تركها منذ قليل.

كان الرجل على النقيض من المجرمين الآخرين الذين يتمتعون بالمهارة الفائقة وخفة الحركة.

" سعداء فى المسكن الجديد "

كانت أمى سعيدة للغاية بالمسكن الجديد وأخذت فى تأثيته بكثير من الحب. وكانت حجرات المسكن واسعه ومشمسة. وقمنا بوضع ناموسيات فى حجرة نوم أبى وأمى وفى حجرة نومنا. وكان لابد من ذلك للحيلولة دون اقتحام الذباب الصغير للغاية الذى كانت لدغاته تسبب الماً مزعجاً. كما تم وضع شباك ضد الذباب على جميع النوافذ.

بجانب حجرة الطعام المطلة على الحديقـــة وفـــى ناحيـــة اليميـــن، المواجهة كانت غرفة المعيشة المريحة وقد فرشت بسجاد عجمى ملون ومقاعد للجلوس من الجلد، ومائدة شرقية لشرب القهوة مطعمة بصدف كثير.

وبجوار الممر المؤدى الى الشرفة وفوق مكتبة صغيرة قامت أمـــى بوضع حوض أسماك، كنت وأخى قد حصلنا عليه كهدية فى عيد ميـــلاد المسيح.

وبعدة عدة سنوات حدث شرخ فى زجاج الحوض فصار غير صـــالح لوضع الماء فيه فحولناه الى صندوق لحفـــظ الحشـــرات وبـــدلاً مـــن استمتاعنا بمشاهدة الأسماك الملونة اللطيفة بحركتها الســـريعة صرنـــا ننظر بدهشة الى عقربتين صغيرتين ــ كنا أمسكنا بهما فى الصحراء – ذات يوم ــ وكنا نطعمها بالذباب الميت.

وفى الجزء الأخير من المسكن كان يوجد الحمام ــ الذى زودناه بما يفى الغرض ــ وكان المطبخ الكبير بجواره مباشرة، وفى وسطه وضعنا موقد غاز فوق قطعة من الرخام بالاضافة الى موقد كيروســـين، وفـــى المواجهة كان أثاث المطبخ الخشبى والمكـــون مـــن صنـــدوق صغـــير وصوان غطيا بألواح رقيقة من الصاج، وفى الشهورالحارة كان يأتينـــا رجل وهو يحمل ألواح من الثلج ثم يعضها فى هذا الصندوق بـــالمطبخ. أما الاطعمة فكانت توضع بالدرج الأسفل من الصوان لحفظها باردة.

أما الماء الناتج عن ذوبان الثلج فكان يتجمع فى إناء اسفل الصوان. فلم نكن نعرف فى ذلك الوقت سوى هذا النوع من الثلاجات.

وفيما بعد، بعد الحرب، كنا نفخر بأننا نملك ثلاجة كهربائية.

أما فى الشتاء فكنا نستخدم هذا الصندوق لأغراض اخرى. وكان أبى قد قام بتثبيت الصندوق ــ الشبيه بالتابوت ــ تحت نافذة المطبخ.

أمينة تعلم أمى طرق التجميل الشرقية

كان للمنزل بدروم، لم نستعمله الا كمخبأ أثناء سنوات الحرب. أمـــا الدور العلوى والذى يؤدى الى سطح المنزل فكان مخصصــا للخــدم او الغسيل. وهناك كنا نرى "أمينة" قابعة أمام طشت الغسيل الكبير، المطلى بالزنك.

وعلى موقد كيروسين كانت تغلى الماء ومسحوق الغسيل المكون من ندائف صابون "اللوكس" والصابون الفرنسى.

وفى الصيف كانت أمى تطلب من أمينة ــ من حين لآخرــ أن تدهن ساقيها بالحلاوة، وهى عبارة عن كتلة من السكر المغلى بعصير الليون وتستخدم ساخنة لتوضع على الجسد، وعندما تبرد تكون قد قبضت على كل شعر الجسد وعند نزعها تأخذ معها كل الشعيرات. وكانت هذه طريقة مؤلمة للغاية ولكنها مؤثرة، كما ان أمى كانت تريد ان يكون لها ساقان ناعمتان جميلتان وهى ترقد على شاطىء البحر. اما نحن الأطفال فكنا نفضل أكل هذه الحلاوة ــ قبل استعمالها بالطبع.

وهذا الطقس المؤلم ـ الى حد ما ـ تمارسه النساء فى مصر قبل ليلة الزفاف، كذلك لنزع شعر مناطق أخرى بالجسد.

وبالاضافة الى أمينة التى كانت تأتى مرة فى الاسبوع للقيام بغسل الملابس، كانت هناك أيضاً فتاة أرمينية تدعى ماريا مانوكيان، كانت تأتى مرة أو مرتين فى الشهر لكى تحيك لنا ملابسنا. ومازلت أتذكر هذه الفتاة جيداً، كانت كائناً صامتاً وخجولاً، وتعانى من ضعف السمع، بالرغم من ذلك كانت تحيك لنا أفضل الملابس.

وكانت ماريا قد درست فى أحد الأديرة لسنوات طويلة حيث تعلمت هناك مهنتها. وكنت كثيرا ما اشعر بالأسى تجاهها بسبب نظرة عينيها الحزينة. وفور انتهاءها من عملها كان أخوها المتزمت يحضر ليصطحبها الى المنزل، فماذا تبقى لها من شبابها الغض؟

وللعناية بالمراتب القطنية كان يأتينا رجل كل عام ومعه آلة تشبه ألة الهارب (الموسيقية)، الا أنها لم يكن بها سوى وتر واحد مشدود [1] وكان يمارس عمله على سطح المنزل، فكان يفتح كل مرتبة ويخرج حشوها القطنى، والذى كانت بعض أجزائه قد تكورت بسبب وزن أجسادنا الثقيل. ومن خلال هذه الآلة كان يقوم باعادة هذه الكتلات القطنية الى وضعها الأصلى، ثم يعيد حشوها مرة اخرى ويخيط المرتبة.

---

[1] – تقصد "المنجد "

بداية الدراسة فى المدرسة السويسرية بالاسكندرية

تاجر قطن سويسرى يمول المدرسة

كان أخى مازال طفلاً صغيرا عندما التحقت أنا فى سن الخامسة بحضانة المدرسة السويسرية. وكان أبى يأخذنى بسيارته الى المدرسة فى الصباح، وفى الظهيرة كنت اعود مع الاطفال الآخرين بسيارة المدرسة. وكانت المدرسة ــ التى تقع بجوار النادى السويسرى ــ بعيدة لدرجة اننى لم اكن استطيع الذهالب اليها وحدى.

كانت "Ecole suisse diAlexandrie"[1] وهذا هو اسم المرسة الرسمى ــ مدرسة خاصة يقوم بتمويلها أحد اثرياء تجار القطن السويسريين. وكانت هيئة التدريس سويسرية خالصة مثل الستين تلميذا أيضاً. ولم يكن هناك سوى استثناء واحد هو السيد "خورى" وكان مندوبا من الحكومة المصرية لكى يعلمنا اللغة العربية ــ الصعبة ــ أما كافة المواد الدراسية الأخرى مثل القراءة والحساب والتاريخ والجغرافيا فكان يتم تدريسها باللغة الفرنسية.

ولم يكن هناك سوى منهج ألمانى واحد، يدرس لنا كلغة اجنبية أولى بدءاً من العام الدراسى الثانى بالمرحلة الابتدائية، وكان مقسماً على فصلين، واحد لنا نحن السويسريين الناطقين بالألمانية والاخر لزملائنا الناطقين بالفرنسية.

---

[1] المدرسة السويسرية بالاسكندرية

خليط من اللغات

فى الحضانة كنا لا نتحدث مع المعلمة الا باللغة الفرنسية وفى كل صباح كنا ننشد النشيد الوطنى السويسرى باللغة الفرنسية. وكنا نغنى بكل قوتنا وبحماس طفولى الأبيات الشعرية المختلفة دون ادراك لمعناها الحقيقى.

وكنت لا افهم علاقة البانيو بالنشيد الوطنى فقد كنت أخلط بين الكلمة الفرنسية "Baignoire" ومعناها "بانيو" وبين الكلمة "Banniere" الصحيحة ومعناها "علم" أما فى وقت الراحة (الفسحة) فكنا نتحدث الفرنسية أو الألمانية السويسرية. أما فى البيت فكنت وأخى نتحدث مع والدينا بلهجتنا المحلية أو باللغة الفرنسية، وكنا نتفاهم مع الخدم باللغة العربية. وفيما بعد تعلمنا اللغة الانجليزية. وقد كانت مدينة الاسكندرية مكاناً مثاليا لتعلم اللغات الاجنبية فى سن مبكرة ، فكنا نسمع كل يوم خليطاً مختلفاً من اللغات. فقد كان زميلى بيتر ــ والذى كان يسكن فى منزل تقتسمه عائلات عديدة ــ يتحدث وهو فى الثامنة من عمره باللغة اليونانية مع جاره اليونانى، مما أثار دهشة والديه اللذين لم يكونا يعرفان كلمة واحدة من هذه اللغة. وفى وقت الراحة كنا نلعب بالبلى او نلعب "المساكة" او نتبادل دود القز، الذى كنا نحتفظ به فى علبة من الكرتون، وكان يلتهم كميات كبيرة من أوراق التوت الطازجة، ليبدأ بعد شهر فى نسج شرانق حريرية ذات لون ابيض او وردى فاتح أو اصفر فاتح، وكان حجم هذه الشرانق لا يعدو حجم ثمرة الفول السودانى، وفى النهاية تخرج منها الفراشات.

لعب الاطفال : البحث عن شظايا القنابل

عندما بدأت قوات المحور فى الهجوم ــ بالقنــابل ــ علــى مدينــة الاسكندرية ــ والذى بلغ مداه فى عام ١٩٤٢ ــ فى هذا الحين أبتكرنــا وسيلة أخرى للتسلية اثناء الراحة : فقد كنا نتنافس بيننــا حــول مــن يستطيع العثور على شظية قنبلة أكبر من الآخر ــ وذلك بــالبحث فــى حدائق منازلنا.. وكنا كأطفال صغار لا ندرك مدى الآثار البشعــة التــى تسببها هذه القنابل.

سنوات الحرب العالمية الثانية

قبل شن أول هجوم بالقنابل على الاسكندرية فى عــام ١٩٤١ مــن جانب القوات الجوية الايطالية، كان قد تــم اتخــاذ التدابــير المناســبة لمواجهةهذا الهجوم.

فقد أُعلن عن اجراء التعتيم العام (تخفيض الاضــاءة) كمــا طليــت فوانيس السيارات باللون الازرق.

أما سماء المدينة فكانت اضواء أجهزة الدفاع الجوى تجوبها طــولاً وعرضا.

ويوماً بعد يوم بدأت عربات مدرعة ــ شبيهة بوابور الزلط ــ فــى اختراق شوارع المدينة. وكان ينتج عن هذه العربات دخان كثيف يوفــر الحماية لقوات البحرية الانجليزية المتمركزة فى منطقة الميناء. وأضيف

الى ذلك نوع آخر من الحماية من خلال البالونات الشبيهـــة بالمنطـــاد والتى شدت الى الأرض بحبال غليظة وكانت تصعب من مهمة طـــائرات الاعداء عندما تلجأ للطيران المنخفض.

كما وُضعت أكياس من الرمل أمام مداخـــل العديـــد مـــن المنـــازل والمحلات والمستشفيات.

وتم مد أسلاك شائكة حول ثكنات الجيش الانجليزى المتمركزة فوق تلال كانت فى الماضى معسكراً رومانيا، كما أحيطت المرافق العســكرية الاخرى ايضا بالسلك الشائك.

العصر الذهبى للملاهى الليلية
وسائقى التاكسى وماسحى الأحذية

وقد ساهم الازدياد المطرد لأعداد جنود قوات الحلفـــاء فـــى تغيـــير صورة وجو المدينة على نحو أو آخر. فكنا أحيانا نبذل مجهوداً كبـــيراً للعثور على حنطور او مكان ظليل فى أحـــد المقـــاهى المنتشـــرة فـــى الشوارع، حيث انتشر جنود الحلفـــاء وصـــارت لهجاتـــهم الانجليزيـــة والاسترالية والنيوزيلندية هى السائدة. وكان هؤلاء الجنود يصرفون كل ما فى جيوبهم قبل ان يعودوا للجبهة.

وكان هذا الوقت هو العصر الذهبى لسائقى التاسكى، مثلما كان كذلك بالنسبة لماسحى الأحذية، الذين استغل بعضهم ذلك على طريقته الخاصة : فإذا أراد جندى من جنود الحلفاء مسح حذاءه هجم عليه اكـــثر مـــن

واحد من هؤلاء "البوهيجية" وكان الفائز هو اكبرهم سـناً واضخمهم جسماً. وكان الانجليزى يشغل وقته اثناء ذلك بمطالعة الجرائد ولا يلحظ ان الصبى الماكر قد قام بربط حذاءه ببعضه البعض. وعندما يدفع الجندى للصبى بورقة فئة الجنيه وينتظر باقى المبلغ يفر الصبى هارباً ليختفى فى أول شارع يقابله وهو يغالب الضحك. أما الجندى المقيد فكان يقف مكفهر الوجه فقد كان عليه أن يتحرر من قيده أولاً.

روميل يتقدم الى الاسكندرية

وقد صار الوضع حرجاً حقاً عندما أخذ الفيلق الافريقى بقيادة الفيلد مارشال "روميل" يقترب من الاسكندرية بسرعة مخيفة. ولحسن الحظ تم تدمير هذه القوات فى آخر لحظة فى معركة العلمين * الحاسمة على يد قوات الحلفاء بقيادة الجنرال مونتجمرى والجنرال الكسندر، وقد أدى ذلك الى انسحاب الألمان من مصر بصورة نهائية.

أثناء هذه الشهور كنا نقضى الليل فى بدروم المنزل. وكنا فى المساء نملأ حوض الاستحمام عن آخره بالماء وذلك لأن محطة مياه المدينة ــ التى كان يديرها الانجليز ــ كانت قد أصيبت اصابة مباشرة وهكذا كان شهرا يوليو واغسطس يعدان كارثة ــ صغيرة ــ بالنسبة لنا.

---

* تبعد العلمين حوالى ١٠٠ كيلو متر عن غربى الاسكندرية (المؤلفة).

لم يحدث سوى مرة واحدة أننا تركنا الدرس وذهبنا الى مخبأ المدرسة بسبب غارة جوية. وقد كان ذلك بالنسبة لنا ــ كأطفال ــ ممتعا، ان نهجر الدرس ونتجاذب اطراف الحديث فى بدروم المدرسة.

ومازال عالقا بذهنى حتى اليوم صورة هذه السحابات الصغيرة البيضاء الناتجة عن انفجار الصواريخ فى السماء، الا ان طائرات الأعداء[1] لم تأت بعد ذلك ثانية بالنهار.

وفيما عدا الغارات الجوية الليلية كانت حياتنا تأخذ مجراها الطبيعى تماما مثلما كان يحدث فى وقت السلم.

اللهم الا بعض السلع الغذائية مثل السكر والشاى فكانت تصرف فى صورة حصص، الا ان الغالبية لم تهتم بذلك، فمن خلال "البقشيش" والعلاقات الضرورية الجيدة، والموظفين الفاسدين ــ لحد ما ــ كان يمكن اجتياز مثل هذه المصاعب.

أما السلعة التى عانينا من نقصها بحق فكانت البطاطس وقد لحظت أنا ذلك عندما صرنا فجأة نستخدم "البطاطا" كبديل للبطاطس.

بطاقة بريدية غريبة

ظل أبى وأمى على علاقة بوالديهما من خلال المراسلة فقط، وكانت الرقابة قد تم فرضها على الرسائل. وكان العديد من الرسائل بين مصر

---

[1] تقصد الألمان.

وسويسرا تفقد أو تحتاج لشهور وأحياناً لأعوام حتى تصل للمرسل اليه. وقد حدث ان تسلم ابى رسالة من "بازل" وتعجب كثيراً لحالة اليأس التى كانت عليها أخته، فقد كان من بين ماكتبته اليه: أرجو عند وصول الرسالة أن تكون أوضاع قوات الحلفاء قد تحسنت.

ولما كانت الرسالة قد وصلتنا فى اغسطس عام ١٩٤٥ فإن أبى دهش دهشة عظيمة لأن الألمان كانا قد استسلموا بالفعل فى ٧ مايو عام ١٩٤٥، فأخذ الرسالة مرة اخرى بين يديه فلحظ ان أخته كانت قد كتبت هذه الرسالة فى ٣١ مايو عام ١٩٤٠.

لقد قارب ذلك المعجزة، أن تصل اليه هذه الرسالة بعد مرور خمس سنوات من كتابتها.

وأمامى الآن بعض "البطاقات البريدية" القديمة :

أثنتنان منها بدون تاريخ، كانت أمى قد أرسلتهما الى والديها باللغة الألمانية. وبجوار خاتم بريد الاسكندرية كتب باللون البنفسجى : "رقابة البريد" باللغة العربية. وهناك بطاقتان ارسلهما ابى من القاهرة فى ٢٩ ديسمبر عام ١٩٤٢ الى امه فى لوسرن والى اخته فى بازل، وقد ظهر عليهما خاتم عليه التاج وكتب عليه :" **Passed P.29** " وبجواره مباشرة خاتم أحمر لقوات الدفاع الالمانية عليه نسر وصليب معقوف مكتوب عليه : "تمت رقابته " باللغة الالمانية وكان هذان الخطابان يخلوان من اللغة العربية، اللهم الا خاتم مربع الشكل.

"أبى يعمل فى معسكرات الأسرى الألمان"

وفى عام ١٩٤٣ وجهت لجنة عالمية من الصليب الأحمر سؤالاً الى ابى ان كان مستعداً - مع طبيب سويسرى آخر ـ للقيــام بزيــارات ـ متقطعة على عدة أيام ـ لمعسكر لأسرى الحرب التابع لقوات الحلفــاء. فوافق ابى على القيام بهذه الخدمة المحددة الوقت لأنها كانت تتيح لــه التعرف على مناطق فى افريقيا والشرق الاوسط.

فرحل غرباً الى المغرب والجزائر، والى فلسطين شرقــاً أمــا فــى الجنوب فقد زار كلاً من أريتريا والسودان.

وكانت هذه الرحلات هامة له كطبيب كما استفاد منها ايضا علميــاً. فقد واجه أبى وزميله جرحى الحرب المصابين والمشوهيــن بصــورة بشعة لم يعرفاها قط خلال ممارستهما لمهنة الطب.

وقد روى أحد المصابين الألمان قصته المأســاوية لأبــى، والتــى تتلخص فى أنه لن يستطيع بعد ذلك ان يمارس مهنتــه كمختــص فــى ديكور المسرح فى برلين وانه لن يستطيع حتى الانتحــار لان انفجــار قنبلة يدوية لم يود بنور عينيه فقط بل تسبب ايضا فى فقدانه لذراعيه.

أما اطرف الاحداث التى وقعت لابى فكــانت فــى أســمرة عاصمــة أريتريا.

فذات يوم هناك، كان أبى قد حصل ـ بصفة استثنائية علـــى راحـــة لعدة ساعات بعد الظهر. فاستغل ذلك ومضى بـــاحدى الســـيارات الـــى المناطق الجبلية القريبة. وعندما وصل الى احد الممرات ترك ســـيارته ليتنزه قليلاً على قدميه. ولم تمضى عشر دقائق حتى سمع ابى صراخـــاً عاليا فجأ، فالتفت ليجد على بعد ٥ أمتار منه قرداً يصرخ وحوله بعض صغاره. فارتعدت أوصال ابى كلها واختبأ بسرعة خلف شجيرة ولم يهدأ روعه الا عندما رأى القرد يمضى فى اتجاه آخر.

لصوص.. صغار وكبار

كانت الفجوة الاجتماعية فى مصر بين طبقة "الباشـــاوات" الحاكمـــة وبين عامة الشعب فجحوة واسعة بلا قرار فهؤلاء الاقطاعيون الأغنياء على نحو لا يمكن تصوره كانوا قد أثروا على حساب الفلاحين العاملين لديهم. فحتى منتصف خمسينات القـــرن العشريـــن كـــان الاقطـــاعيون يستغلون هؤلاء الفلاحين ـــ لحد ما ـــ كعبيد.

ولم يكن عمال المدينة على حال أفضل من الفلاحين. فقد طال الفساد دوائر الحكام. ولذا لم يكن من المستغرب ان يحـــاول الكثـــيرون منـــهم تحسين اوضاعهم المعيشية على نحو غير شريف. وقد حدث ذلك تحديدا فى سنوات الحرب حين حدث نقص فى المواد المستوردة مـــن أوروبـــا وتوقفت بعض الصناعات بسبب الحرب فشاعت سرقة كل ما هو غـــير مثبت بالارض او الحائط.

وذات مرة فى احدى محطات البنزين اندهش ابى عندما أعطى عامل المحطة مفتاح السيارة ليفتح غطاء خزان بنزين ســـيارته، فعـــاد اليـــه العامل واخبره انه ليس بحاجة الى المفتاح لأن خزان البنزين ليس لـــه

غطاء كما أخبره ايضاً بفقدان أغطية الاطارات الاربعة. وكان من عادتنا ان نضع ملاءات الأسرة على النوافذ لتهويتها وذات صباح لم يندهش خادمنا "محمد" عندما رأى ان هذه البياضات قد اختفت. فقد قام أحدهم بتسلق سور الحديقة واستطاع انتزاع الملاءات بعصا طويلة مثبت بطرفها خطاف.

وقد كان أبواى يعشقان الصحبة فكانا غالبا ما يدعوان اصدقائهما لزيارتنا. وكان احد اصدقائهما القدامى يزورهما كل اربعاء تاركاً سيارته امام باب المنزل. وذات مساء ودع الرجل والدى ليعود الى منزله ولم يكد يخرج حتى اصيب بفزع عظيم عندما رأى المكان الذى ترك به سيارته الفورد خاليا منها ومن أى شىء آخر. فأبلغنا الشرطة على لفور، ولكن رجال الشرطة أبدوا عجزهم عن المساعدة.

وبعد عدة اسابيع عثر صديقنا على سيارته بالصدفة ولكنه وجدها مرتكزة على ثمانية حجارة وبدون اطارات. لم يكن هناك شىء يمكن حمايته من السرقة. وكانت تقع احداث لا تصدق مثلما حدث لأبى ذات يوم عندما ذهب فى يوم "أحد" الى الخياط ليحضر بدلة كان قد طلب منه تفصيلها له. وخرج ابى من عنده حاملاً بدلته على ذراعه واتجه الى سيارته التى كان قد تركها على يمين الطريق، ففتح باب السيارة الأيمن ثم فتح النوافذ كلها ووضع البدلة على المقعد الخلفى ثم دار حول العربة وجلس خلف عجلة القيادة، وقبل ان ينطلق بالسيارة اراد ان يتأكد انه قد اهتم بوضع البدلة بعناية فالتفت ولم يصدق عينيه، فالبدلة الفاخرة كانت قد تبخرت فى الهواء .

فقد كان هناك من يراقب ابى عند مدخل محل الخياط لانه فى اللحظة التى دار فيها ابى حول سيارته كان اللص ــ خفيف الحركة ــ قد انتزع البدلة من خلال نافذة السيارة.

أيام الآحاد

كنا نقوم كل يوم أحد بزيارة للسيد "ياقوت "، والــذى كنــا ــ نحــن الأطفال ــ نناديه بجدى، وكان مبعث ذلك هو اشتياقنا لأجدادنا الحقيقيين الذين يعيشون فى سويسرا. وكان الجد ياقوت يعيش فى فيلا رائعة فــى الرمل ضمن الفيلات التى يقطنها الأوروبيون وغــيرهم مــن عــائلات الاسكندرية الغنية.

وكان منزله ــ المكون من طابقين ــ محاطا بحديقة كبيرة، وبجوار باب الحديقة مباشرة كانت هناك شجرة بوينسيانا*[1] ورافــة الظــل ذات زهر أحمر صارخ.

وأمامها بقليل كانت هناك شجرة ذات فروع ضخمة وكثيرة تســمى "شجرة البلينان"[2] أما العجيب فى هذه الشجرة فهى جذورها التى تخــرج من الاغصان وتتجه الى اسفل حتى تنتهى الى عمق الأرض.

---

[1] – وهى تعرف باللغة العربية باسم شجرة المشليخ او الرنق (المترجم)

[2] – أثاب باللغة العربية.

وهى شبيهة بشجر التين الهندى غير أنها لا تكون ابدا فى المـــاء. وقد كانت جذورها المتشعبة بمثابة مخبأ لنا ــ وخلف هذه الشجرة كان هناك سقيفة (برجولا) صغيرة يظلها نبات متســـلق ذو ألــوان ورديـــة وليلكية[1] .

وكان المنظر من هناك رائعا، فهاهى الأحواض المنسقة بعناية والتى تضم نباتات الكورياريا والزينا ذات الالوان الصارخة والهادئــــة وســـط أعشاب كثيفة خضراء.

وكان واحد من البستانيين يقوم برى الزهور دائما، فلم تكن طــــرق الرى الحديثة قد عرفت بعد. وفى الجزء الخلفى من الحديقة، حيث كانت السحالى تعبر الممرات بسرعة خاطفة، كان يوجد ملعب للتنس محاطـــا بورود فواحة، وشجيرات الأوليااندر الحمراء. وهنا عثر ابى ذات يـــوم على شرنقة كانت تتخذ من احد الاوراق الخضراء ملاذا لها. فأخذها ابى وكذلك أخذ الغصن بحرص الى المنزل. ولم يمضى سوى وقــت قصـــير حتى تحولت اليرقة الى شرنقة صغيرة بنية اللون، وعندما آن الاوان اذا بالطبقة الرقيقة تتمزق وتخرج منها "فراشة ليل" ســاحرة لـــها الــوان الاولياندر: الاخضر والوردى والابيض والبنى. وخلــف ملعــب التنـــس وعلى مقربة من شجرة التين كان يوجد "حوض صحراوى اصطنــــاعى" به كل انواع الصبار.

---

[1] - أحمر مشوب بأزرق.

كانت الحديقة واسعة لدرجة اننا فى أعياد الفصح[1] - كنا نسأل عما اذا كان "أرنب الفصح" قد خبأ بيضه فى الجزء الأمامى او الجزء الخلفى من الحديقة

وذات مرة فى عيد الفصح وعندما كنا ـ أنا وأخى ـ نفتش بدقة الجزء الأمامى من الحديقة بحثاً عن البيض الملون اكتشفنا وسط العشب الأخضر حرباء ذات لون اخضر.

وكان أن أدارت الحرباء عينيها ـ كل على حدة ـ ١٨٠ درجة واخذت تنظر الينا باندهاش. فاخذناها لنريها ـ متباهين ـ لجدنا ولوالدينا. وفيما بعد، لما عرفنا اننا لن نستطيع اخذها معنا الى المنزل، قمنا بوضعها على أحد الاغصان الدانية، فإذا بها تبدل لونها الاصلى الى لون رمادى غامق.

فى حديقة "ياقوت بك" آثار يونانية ورومانية

كانت هذه الحديقة المدهشة تمثل لنا نحن الاطفال جنة حقيقية. أما المنزل نفسه فكان مثل الحديقة يحتوى على أشياء طريفة ونادرة. فالمدخل ذو الدرجات المرمرية، كان يزدان بأوان بها شجيرات فلفل، كانت أغصانها مليئة بقرون حمراء وصفراء وخضراء.

وخلف الباب مباشرة كان هناك صندوقان زجاجيان بهما العديد من قطع الآثار المصرية، كانت مجموعة قيمة عثر عليها فى الاسكندرية،

---

[1] - عيد القيامة.

عبارة عن اثار رومانية واغريقية تبدأ من المصابيح الزيتية المزخرفة وتنتهى بالجعارين الفرعونية الصغيرة. ففى بداية هذا القـــرن عندمـــا وصل "جدى" ياقوت الى الاسكندرية ليعمل مهندساً فى شركة " بـــراون بوفرى" كانت هذه الآثار النفيسة تباع باسعار زهيدة للغاية. وكما أحـــب "جدى" آثار وطنه الجديد أحب ايضا تاريخ الحضارة القديمة. وهكذا قام بتأثيث غرفة معيشة على الطراز القديم الخالص. كما كان ايضا عازفـــاً للتشيلو وهكذا كان يقوم بتقديم حفلات موسيقية منتظمـــة لأصدقـــاءه، وكان ذلك من دواعى سرور أبى وأمى.

وعندما كنا لا نذهب الى "جدى" فى أيام الاحاد، كنا نقضصى الايـــام الحارة على شاطىء البحر.

أما فى أيام الشتاء، حين كان الجو يمطر أحيانا، كنا نســتغل الجـــو الصحو ونتواعد مع أصدقاء للقيام برحلة الى بحيرة مريوط القريبة من الصحراء.

كانت هذه البحيرة معروفة فى العصور القديمة بأسم "مـــاريوتيس"، وكانت تفصل بين مدينة الاسكندرية ــ الواقعة شمالا علـــى تـــلال مـــن الحجر الجيرى ــ وبين البر، فكان ذلك تدعيماً لموقعها الاستراتيجى.

وعبر مئات السنين جفت مياه البحيرة ــ الواقعـــة تحـــت مســتوى البحر، وتم زراعة مساحات شاسعة منها.

وأثناء حصار الاسكندرية فى عام ١٨٠١ قام الانجليز بعمل ثقـــوب فى الكثبان بالقرب من "أبو قير"، فاغرقت مياه البحر آلاف الكيلو مترات من الأرض الخصبة فى خلال شهر واحد. وفى عشرينات القرن الماضى لم يدخر محمد على ـــ منشىء قناة المحمودية ـــ وسعاً فى اســـتصلاح هذه المنطقة.

وفى بداية هذا القرن اهتمت الحكومة المصرية مجدداً بتجفيف هـــذه المنطقة، حيث قامت بخفض منسوب الماء الى مترين ونصـــف المـــتر تحت مستوى البحر، مستخدمة المضخات فى ذلك.

فلا عجب اذن أن تتبخر مياه البحيرة الضحلة اثناء الصيف، ويحـــل محلها فى بعض المناطق طبقة سميكة من الملح.

أما فى الجهة الأكثر عمقاً من البحيرة حيث لا تتبخر المياه بســـرعة فكانت تنمو ـــ فى المياه المالحة ـــ حشيشة الماء التى كـــانت تصبـــغ البحيرة باللون الوردى البرتقالى الغريب. وقد كـــان المـــرور ببحـــيرة مريوط للوصول الى الصحراء المجاورة تجربة لا تنسى، تحديداً اثنـــاء شهور فبراير ومارس وابريل حين تسقط الأمطار احياناً فتجعـــل نبـــات الصحراء يزدهر فجأة. فكانت جزر العشب المتناثرة وشجيرات الشـــوك تبعث خضراء مرة أخرى، وبين هذه وتلك كانت تتلألأ زهور عين البقر البرية وزهور "الأسطير" الصفراء، وزهور النعمان البرية الحمراء.

وكان أولاد البدو الفقراء ذوو النظرة الحزينة، منتشرين على الطرق الوعرة ليبيعوا شقائق النعمان الحمراء والزرقاء والبنفسجية، بينما كان

يعرض شمع الملح للبيع على شاطئ البحيرة، وكان هذا الشمع يتلألأ في الشمس كآلاف من قطع الماس.

وأحيانا كنا نتجه إلى الغرب حتى نصل الى اطلال المدينة الصحراوية " مارمينا" حيث توجد مقبرة القديس مينا، والذى كان يعتبر حامياً للصحراء الغربية، والذى استشهد هنا فى عام ٢٩٥م.

وكان الحجاج يشدون الرحال الى "مارمينا" فى القرنين الخامس والسادس. وفى عام ٩٠٠ قام البدو بتدمير المدينة وأعيد اكتشافها على يد عالم المانى فى بدايات هذا القرن. حينذاك كنت حديثة السن فلم اهتم اهتماماً كافيا بهذه المدينة. الا اننى مازلت اتذكر بدقة تجوالى خلال هذه الأطلال ذات مرة فاذا بالارض تميد تحت قدمى واذا بى أسقط فى سرداب، وبالقرب منه عثرنا على شذرات صغيرة ملونة كانت بقايا فسيفساء.

ومع حلول شهر مايو كانت درجة الحرارة ترتفع لدرجة اننا لم نكن نستطيع التجول بين الأطلال، وكان لون الأزهار المحيطة بمريوط يشحب. وكانت الصحراء تكشف عن وجهها الحقيقى: درجة حرارة عالية، وسراب، وكثبان رملية بلا نهاية، وهكذا كان الجميع ــ صغارا وكباراً ــ يفضلون الذهاب الى شاطئ البحر. فعلى الساحل وعلى مسافة ليست بعيدة من بحيرة مريوط كان يقع شاطئ العجمى المحبب الى نفوسنا. فهنا تلمع المياه بلون فيروزى، وكان الشاطئ خالياً من الناس تقريباً الا من بعض الاوروبيين الأثرياء الذين كانوا يملكون هناك بيوتاً لقضاء عطلة نهاية الاسبوع.

حمام كليوباترة

وفى الجهة المقابلة للعجمى يوجد شاطىء سيدى بشر الذى يغص بالمصطافين، وكان هؤلاء يفضلونه حتى انه امتد ناحية الشرق وضم اليه بعض الخلجان. وهكذا نشأت عدة شواطىء تحت اسم سيدى بشر رقم ٢ ورقم ٣.

وفى سيدى بشر رقم ١، الشاطىء الأصلى، كنا نصادف ـ على الصخور الجيرية ـ محارات متحجرة، كنا نسمع من خلالها صوت ارتطام الأمواج على فترات زمنية محددة.

وعندما كنا نذهب الى شاطىء سيدى بشر رقم ٢، كنا دائما نسبح الى الجزيرة الصغيرة التى تقع على بعد كيلو متر واحد. وفى هذه الجزيرة توجد بضعة درجات محفورة فى الصخر تفضى الى حمام صغير،أشيع عنه ان كليوباترا استحمت فيه قبل ان تبحر مع يوليوس قيصر فى نهر النيل.

سيدى بشر ٣

بضع درجات كانت تقودنا من الطريق الى شاطىء سيدى بشر رقم ٣ برماله الناعمة، حيث كانت لنا كابينة هناك. كان خليجنا المفضل محاطاً بثلاثة مدرجات من الكبائن الصغيرة والكبيرة خضراء اللون،

كأنها نصف دائرة، تحيط بمسرح رومانى. ومن هناك كنا نستطيع رؤية قصر الملك فاروق المحاط بغابة ضخمة من النخيل[1] وكان معظم رواد هذا الشاطئ من السوريين والمصريين الأغنياء، الذين كانوا يفضلون الجلوس بملابسهم فى الجزء الامامى المظلل من كبائنهم، وهم يتناولون الفستق ناظرين الى مياه البحر الزرقاء. أما الاوروبيون فكانوا يقضون معظم وقتهم تحت المظلات او فى الهواء الطلق.

وعندما كنا نشعر بالجوع، ظهراً، كنا، تحت مظلتنا ذات الخطوط الحمراء والبيضاء والزرقاء والتى كنا نحضرها معنا، نتناول الخبز بالسمسم والجبن وشرائح البطيخ ونتوج ذلك بقطع تورتة الشكولاتة التى كانت أمى تتقن صنعها. وأثناء ماكنا نتناول طعامنا كنا نرى خدم آكلى الفستق وهم يحملون سلات مليئة بالطعام والأوانى ليقدموا الطعام الكافى لسادتهم.

ومن حين لآخر كان يمر بنا بائعون جائلون وهم يحملون صناديق زجاجية صغيرة مليئة بالفول السودانى الطازج، والفستق واللب. أما البائع الذى اشتاق اليه دائما فكان بائع "الفريسكا".

الملك فيصل والملك حسين على شاطئ سيدى بشر

أثناء شهور الأجازة الصيفية من شهر يولية حتى نهاية شهر سبتمبر، كنا نذهب يومياً الى شاطئ البحر. وبالرغم من توافد

---

[1] - قصر المنتزه.

الموسرين من أهل القاهرة على الاسكندرية فى هذا لوقت، الا ان شواطىء سيدى بشر لم تكن تعرف الازدحام.

وذات يوم أخذت فى مراقبة صبى ـ فى مثل عمرى ـ وهو يلهو على الشاطىء، دون ان تبدو عليه سعادة ما.

فحزنت من أجله، فبالرغم من التفاف بعض الناس حوله الا انه بدا وحيدا.

ثم اكتشفت بعد ذلك ان هذا الصبى ليس سوى "فيصل" ملك العراق، والذى تم اغتياله بعد عدة سنوات[1] . ومرة أخرى رأيته يلعب مع صبى فى عمره كان يدعى حسين صار فيما بعد ملكاً على الاردن.

كنا جميعاً سعداء بالبحر، وكنت انا احب السمك وكنت ، كفتاة صغيرة، احب الخروج مع الاطفال الآخرين فى رحلة لصيد السمك. ومن اجل ذلك صنعت لى امى شبكة من مخلفات "ناموسية" قديمة، قام ابى بتثبيتها فى عمود خشبي طويل. وكنت بهذه الشبكة ـ المصنوعة بالجهود الذاتية ـ أحرز نجاحاً أكبر من باقى الأطفال الذين اشتروا شباكهم من محل "هانو"الشهير.

---

[1] قُتل فيصل ملك العراق فى أحداث ثورة ١٩٥٨ التى أطاحت بالنظام الملكى وأعلنت الجمهورية.

وبالإضافة لهذه الشباك كنا ـ نحن الأطفال ـ نحتاج إلى "برطمانات" المربى لصيد الاسماك، فكنا نغطى فتحة البرطمان بمنديل قديم ثم نثقب هذا المنديل ثقباً بمقدار الاصبع، ثم ندهن المنديل بالدقيق ونملأ البرطمان بماء البحر ثم نضعه فى المياه الضحلة، وكنا نقذف بقطع الخبز القديم الى جواره كطعم إضافي. وفى لحظة تكون أسراب من الأسماك قد سبحت تجاهه فإذا ما انتهت من التهام الخبز اتجهت الى البرطان. فنتحرك نحن الأطفال ونرمى برطمان المربى على الرمل فكان ذلك يسبب ذعراً كبيرا للسمك فيهرب الجزء الأعظم منه تجاه البحر، أما الجزء الأصغر فكان يلوذ بالبرطمان ولا يستطيع الخروج منه ثانية.

وعندما كنت لا أقوم بصيد السمك كنت اذهب للسباحة مع صديقتى "إيفى" . وكان يسمح لنا باستئجار القارب ذى البدال فى حالة هدوء البحر وعدم ارتفاع الأمواج.

وكنا نبحر بهذا القارب حتى البراميل الصغيرة الحمراء، وهو المدى المسموح به من حراس الشاطىء. وكان يمكن الإبحار لأبعد من ذلك بالطبع، ولكن تحت المسئولية الشخصية.

وذات يوم حار قبيل انتهاء الحرب ـ كنت أتنزه مع أخى الصغير هاينريش" على شاطىء البحر وفجأة رأينا شيئا أخضر قادماً تجاه الشاطىء، وفى البداية ظننا انه حيوان "رئة البحر" المتلألىء، ذو اللون الأزرق. ولما غامرنا الشك بحث أخى طويلاً عن عصا، وفى النهاية عثر على قطعة قديمة صدئة، استطاع بها ان يصيد هذا الشىء الأزرق. فكانت دهشتنا بالغة حين اكتشفنا ان ذلك الشىء هو قبعة أحد رجال

القوات الجوية الألمانية واستطعنا ان نرى بوضوح النسر والصليب المعقوف واسم صاحب القبعة، فيا ترى ماذا كان مصير هذا الرجل؟

هكذا كنا نقضى أيام عطلات نهاية الاسبوع والصيف.

وفى المساء، فى طريق عودتنا الى المنزل القائم بحى "كامب شيزار" كنا نتوقف لنشترى الخبز المصرى الرائع والطازج. ثم نعرج على محل "باباى ناكيس" اليونانى لنشتر شيئا من "المرتدلا" وعلبة من الجبن الدانماركى الشهيرة باسم "بريمولا" كما كنا نشترى من أجل ضيوفنا بعض زجاجات البيرة المصرية "ستلا".

كانت زجاجة "ستلا" باردة فى محل بالإسكندرية دافعاً قويا للإنجليز المحاربين فى الصحراء الحارة للاستمرار فى المعركة فى صيف عام ١٩٤٢ القاتل.

وقد وصفت راوية "Ice cold in Alex" زجاجة البيرة الباردة أثناء المعركة الحامية وصفا صادقا.

وقبل أن نضع مشترواتنا فى السيارة، كنا نعبر الشارع لنتسكع أمام أكشاك السوق المختلفة وكنا نحتار كثيراً بين البطيخ الذى يطفىء الظمأ وبين الشمام. وبجوار هذه الفاكهة الرائعة، كانت ترتفع تلال من التين والعنب الخالي من البذر والبلح الأمهات. أما ثمار الرمان الحمراء والجوافة الصفراء بطعمها الغريب فكانت ترص على هيئة أهرامات.

فى السوق

كانت كل مرة تصطحبنى فيها أمى الى السوق بمثابة تجربة مثـــيرة بالنسبة لى.

كان هدفنا الاول فى معظم الاحيان هو "مصطفى" تاجر الدواجن، الذى كنا نلمح اسمه من بعيد على لافتة ذات الوان صارخة.

كان محل مصطفى الصغير المعتم يحتوى على كل انـــواع الدجـــاج والحمام وقد حشرت فى اقفاص من الجريد.

وكان شراء دجاجة واحدة يحتاج الى وقت، فإذا ما عثرت بعد بحـــث طويل ــ على دجاجة كبيرة الى حد ما، يقوم مصطفى باخراجـــها مـــن القفص ثم يذبحها بسكين حاد، ثم يلقى بها ببرود على الرصيـــف امـــام المحل. وهناك ترفرف الدجاجة الذبيحة قليلاً ثم تسكن حركتـــها للأبـــد، فيأخذها مصطفى ثم يضعها على كفة ميزان عليها ورقة كرتون رقيقة، كان قد تركها طول الليل فى الماء، فيشير الميزان الى ان وزن الدجاجة يبلغ كيلو جراماً ونصفا.

وفى المنزل يتم نتف ريش الدجاجة ثم تمرر على لهب النار. وبعـــد ان تقوم خادمتنا " أمينة " بتفريغ حوصلة الدجاجة التى حشاهـــا تـــاجر الدواجن بحب الذرة، نجد ان وزن الدجاجة لا يكاد يصل الى كيلو جـــرام واحد.

لم يكن سبب نقصان الوزن هو ريش الدجاجة الذى تم نزعه، وانما كان الورق الرطب الذى لف به الدجاجة، وحب الذرة الكثير فى حوصلتها.

بعد شراء الدجاج كنا نذهب الى "ابراهيم" ذلك الرجل العجوز، الذى كانت له عين واحدة فقط وبالرغم من ذلك كان مبتسماً دائماً، فنبتاع منه رطلاً من الباذنجان، وكفاتح للشهية كنا نشترى بعض الخرشوف، فقد كنا جميعاً نحب الخرشوف المصرى.

بجوار تاجر الخضروات كان يوجد محل الجزارة الرئيسى للحى. وأمام المحل كانت تتدلى اجزاء الأبقار والشياه.

وكانت كل الاجزاء الكبيرة من اللحوم متموغة بخاتم بنفسجى اللون. ثم عثرنا على جزار سويسرى نستطيع ان نشترى منه اللحم ومنتجاته. وكان الرجل يمتلك محلاً منذ سنوات طويلة فى وسط المدينة، وكان يدر عليه ربحاً كبيراً.

وعلى مسافة غير بعيدة من محل الجزارة داخل السوق، كان يوجد محل يبيع اسماك كثيرة ومتنوعة، منها سرطانات البحر، وسمك المحار، والاستاكوزا، واسماك كبيرة وصغيرة، وكذلك الكركند البحرى والكابوريا بأطرافها المريعة وأحيانا كان يوجد لديه رأس سمك القرش بجوار اسماك البورى.

فى وسط السوق كان مقهى يغص دائماً بالرواد هناك كـــان ينتقــل الجرسون الصغير بخفة وسرعة حاملاً بمهارة صينية مملوءة بفنــاجيل القهوة الصغيرة.

وفى أحد الاركان كان يجلس بعض المسنين الطيبين، وهم يدخنـــون الشيشة متابعين اثناء ذلك جيرانهم وهم يلعبون الدومينو. وكان هنـــاك آخرون يجلسون ساعات طويلة مستغرقين فى التفكير وأمامـــهم المـــاء والقهوة "المظبوطة" وبأيديهم مسبحة، يسبحون بها الى مالانهاية.

لم يكن سوق الابراهيمية، يعرف الهدوء فى أى وقت طول اليـــوم، فالحركة فيه لا تنقطع وكذلك حديث الناس به لا ينتهى. وبعد مرور كــل ساعة كان ينبعث من المقهى لحن " أوبرا عايدة" الشـــهير معلنـــاً عــن اذاعة نشرة الأخبار باللغة العربية. وكان من الصعب ايضا تجاهل نـــداء بائع عصير الليمون والذى كان يمسك بصاجات من النحـــاس يضربـــها ببعضهامثبتاً على كتفه حمالات تعينه على حمل الإناء النحاسى وأكواب وضعها فى حزام حول وسطه.

وأثناء ذلك ترتفع أصوات بائعى الفاكهة والخضار وهـــم يمدحـــون بضاعتهم لربات البيوت اللاتى كن لا يتوقفن عن التلويح بأيديهن.

أما الهدوء النسبى فكنا نجده عند بائع الذرة، الذى كان يشوى كيزان الذرة على الفحم.

وبين حين وآخر كان يظهر رجل "الجلاجلا" الذى كان سرعان ما يلتف حوله الناس. ويقوم هذا الساحر باخراج كتاكيت من فمه او باخفاء بيض حمام خلف أذنه. ومن المقهى يستطيع المرء ان ينظر الى داخل محل الكواء الذى كان يملأ فمه بالماء ثم يرش به القطعة المراد كيها.

وعلى الرصيف كان يجلس شحاذ بدون ساقين فوق لوح خشبى بعجلات، يندب حظه ويدعو بحرارة للمحسنين. وعلى الناحية الأخرى من الطريق، حيث كانت رائحة الكباب المثيرة تعبق المكان، كان يجلس بعض الموسرين، يتحدثون حول الأنباء التى أوردتها الصحف.

ومن وقت لآخر كانت تسمع فرقعة سوط هوى على ظهر بغل هزيل، يجر ـ بصعوبة ـ عربة كارو ـ ملئت عن آخرها بالشمام.

وعلى ناصية المقهى كان يوجد محل لبيع الحلويات الشامية به كل أنواع الحلويات الشرقية المختلفة. فعلى ارفف زجاجية صغيرة ومستطيلة رصت حلوى "لقمةالقاضى" وهى حلوى تركية تصنع من جيلاتين سميك وكثير من السكر، والوان، وروح الورد أو البرتقال. وبجوار ذلك رصت الحلوى المحشوة باللوز والقرفة فى العسل. وكان من الطبيعى أن يوجد هناك الفستق المحمر فى العسل.

وهناك كان يصطف البلح الأحمر المعقود بالسكر والمشمش المحشو باللوز.

اما نحن الأطفال فنكا نفضل فى الغالب رقـائق المشمـش المجففـة الناضجة والمطوية المعروفة بأسم "قمر الدين". وكان يباع على هيئـة لفائف. وعندما كنا نأكله كنا نشعر بأننا نعض ورقاً كرتونيـاً برتقـالى اللون. وكان يمكن وضع لفة منه فى الماء لمدة ليلـة وفـى الصبـاح يصبح كريمة مشمش رائعة وطيبة المذاق.

وبالاضافة الى اكشاك السوق العديدة ومحل الدواجن، ومحل الجزارة ومحل الأسماك كان هناك ايضا بالطبع بعض الورش. فى كـل شـارع تقريباً كان يوجد "مبيض نحاس" . ومن بعيد كنا نسمع الطرق الصـادر عن "السمكرى" [1] ذى النشاط الواسع، لأن الادوات الصحيـة بمعظـم المنازل لا تعمل بصورة جيدة.

وكانت بعض المحلات الصغيرة تحيط بالشارع الرئيسى، مثـل ذلـك المحل الذى كان يملكه الأرمنى العجوز "مسيو ايسفارديان" الـذى كنـا نشترى منه الحلوى المتنوعة، وكان يوجد على طاولة المحـل صـف كامل من الزجاجات المدورة المليئة بقطع "البونبون" الرائعة والملونـة. وكنا لا نستطيع مقاومة مصاصات "تادلر" أو العلـب المليئـة بشرائـح البسكويت ماركة " كيت كات". وبجانب الحلوى كان يوجد لدى "مسـيو ايسفارديان" كذلك : حافظات الأقلام الخشبية بألوانها الزاهيـة، وكذلـك أقلام لكل انواع الكتابة وأحبار حمراء وخضراء وزرقـاء وكذلـك كـل الأدوات الكتابية. وكان هذا النوع من المحلات الصغـيرة يبيـع أيضـا أدوات الخياطة.

---

[1] لعلها تقصد السباك ــ ولكن نظرا لان المؤلفة كتبـت اللفـظ عربيـا بحروف لاتينية آثرت تركه كما هو (المترجم)

خيوط التطريز مختلفة الالوان. وكان التطريز يتم تدريسة للتميـــذات ــ بالدرجة الأولى ــ فى جميع المدارس تقريباً.

وكانت السيدات اليونانيات مشهورات بتطريز المفـــارش الجميلـــة. وكان معظم هؤلاء النساء يملكن كثيراً من الوقت لأن الأعمال المنزليـــة كان يقوم بها ــ بدلاً عنهم ــ الخدم.

ولذا لم يمكن مستغرباً أن يقضى بعض هؤلاء النساء يومهن الطويل خلف النوافذ، يقزقزن اللب ويلفظن قشره بمهارة وهن يتابعن ما يجرى من أحداث فى الشارع.

وفى حي السوق كان يسكن مواطنو بلدان البحر المتوسط فى منازل فقيرة تتكون من طابق أو طابقين. وكان من بين هـــؤلاء ــ بالإضافـــة للمصرين ــ اليـــهود والشـــوام واليونـــانيون والمـــالطيون والأرمـــن والإيطاليون وكثيرون من بلدان البحر المتوسط.

وبينما كان صوت المغنى الفرنسي "تينوروس" ينبعث مـــن إحـــدى النوافذ مردداً اشهر أغانية، كانت بعض الفتيات يقفن أمام منازل قديمة ويتبادلن الشتائم باللغة العربية أو اليونانية أو الايطالية، بينمـــا كـــانت احدى بنات الشام تقف على مقربة منهن وقد فهمت كل حديثهم، وأخذت تضحك من قلبها.

وفى السوق كنا نقابل فى أحيان كثيرة عربة يجرها حمار وقد حُملت بقصب السكر. وغالباً ما كنت أمى تشترى لى منه عوداً طويلاً، فـــاخذه معى الى المنزل وأعطية لفاطمة التى كانت تقطعه لى على نحو أستطيع به تناوله. وكان مضغ القصب يعتبر تمرينا جيداً لفكى. وكـــان يمضـــى وقت قبل أن ألفظ المصاصة بينما يسقط شئ من هذا العصير الحلو على ذقني.

وفى موسم الفروالة كـــان البـــائعون يحملـــون ثمارهـــا الناضجـــة والطازجة فى سلال على رؤوسهم، ويهرولون متباهين فـــى الشـــوارع وهم ينادون على بضاعتهم نداء منغماً.

وعندما كانت أمى تذهب الى السوق بقائمة مشـــتروات كبـــيرة، ولا تستطيع حمل الحقيبة الممتلئة، فإنها كانت تستعير سيارة أبى ال "أوبل" القديمة.

إما إذا كنا فى عجلة من أمرنا ــ لحسن حظى ــ فإننا نركب عربة حنطور.

وتتهادى بنا العربة فى طريق " اليزية " عائدة بنا الى المنزل. وكان بعض الناس يأخذون خدمهم معهم، ليتبعوا سادتهم وهم حاملين السلال.

وإذا ما انتهينا من شراء بعض احتياجاتنا كنا نعود أدراجنا سائرين، فطريق العودة الى المنزل كان قصيراً لأنه كان مليئا بالأحداث المختلفة.

فكان إنبعاث آلة تنبية سيارة مارة توقظ "عربجـــى الحنطـور" مـــن غفوته ويجفل منه الفرس أيضاً.

أو تكاد عربة محملة بالأوانى الفخارية أن تصطدم بســائق دراجـــة جامح، حمل على رأسه طاولة ملئية بالخبز.

وعلى الناصية ترى شرطياً وهو يلوح بيدية بعصبية مطــارداً أحــد الشحاذين .

وأحيانا تقابل امرأة مسكينة جلست على ناصيـــة الطريـــق لـــترضع وليدها.

وغالباً ما كنا نرى بائعة البيض ضعيفة النظر وهى تجلس فى ظــــل شجرة كافور لتربط ما كسبته بعناء ــ فى خرقة قذرة. وعلى بعد عدة أمتار يجلس رجل رث الثياب، شوه الجدرى وجهه، ليأكل بقناعة وجبه متواضعة عبارة عن خبز وفول. وعندما كان أحدهم يمر به كان يدعوه : إتفضل. فالمصريون، مثل كل الشرقيين مشهورون بكرم الضيافة.

الشراء فى المدينة

إذا ما كان الشراء والبيع بسوق الابراهيمية نموذجاً لما يحدث فــــى الأسواق الشرقية، فإن الحركة التجارية بوســط المدينـــة كـــانت علـــى النقيض من ذلك، كانت تجرى على الطريقة الأوروبية.

أثناء العطلة الدراسية كنت أسعد بذهابى مع أمى إلى وسط المدينة. كنا نمضى بالأوتوبيس الأزرق على امتداد شارع أبو قير، ثم ننحـــــرف فى النهاية الى شارع فؤاد الاول.

وهناك كنا نذهب الى محل " بودرو" ونجلس فى التراس ليحمل الينا الجرسون اليونانى "أيس كريم" منعشاً .

ثم ننطلق الى شارع" شريف باشا" حيث المحل العريـــق المعــروف باسم " أولد إنجلاند"، حيث كان الموظفون هناك يتحدثـــون بالانجليزيـــة والعربية والفرنسية والايطالية واليونانية، وفيما عدا ذلك كنا نشعر بأننا فى وسط البيكاديللى بلندن ـــ فهناك نجد "التويد" الانجلـــيزى الجميـــل، وأقمشة "فيلا" الملونة التى تصلح للملابس الشتوية الراقية، والصابون الانجليزى وكل أنواع الشوك والسكاكين المصنوعة فى " شيفلد".

وكانت أوانى " ودجود" الشهيرة تحتل المكــــان الرئيســى بـــالمحل. وبينما كانت أمى تستعرض اقمشة التويد المختلفـــة المصنوعــة فـــى مانشستر، كنت أقف أمام أوانى الأطفال الانجليزية المحببة " بيتر رابيت" المصنوعة فى بياتريكس بوتر.

وفى نفس الشارع، وعلى مسافة غير بعيدة من محل أولد إنجلانـــد" كان يقع المحل المنافس، الفرنسى، "ريفولى لاميزون دى كادو ".

وفى طريقنا الى محل " أولد إنجلاند " كنا غالباً ما نذهب الى محل "تاوا" والذى كان يعرض سلعاً شرقية، صنعت يدوياً بصورة دقيقة للغاية. وكان شارع " شريف باشا" مشهوراً بمحلاته الجميلة، الغالية .

وكان به ايضاً محلان لبيع المجوهرات : هوروفيتش" و "زيف فرير" وذات يوم ذهب والداى الى أحد هذين المحلين لكى تشترى أمى قطعة حلى. وكان أن إختارت " بروش" ذهبياً صغيراً على هيئة أوراق شجر تضم حجراً كريماً على شكل قلب.

وعند مغادرة المحل قام صاحبه بتهنئة أمى على حسن اختيارها فقال لها: "مبروك على قلب زوجك الصغير"

أما حاجاتنا العادية فكنا نستطيع شراءها من محلات صممت على الطراز الفرنسى مثل : " جراند ماجازين" و "شالون" و " أوريكو" أو المحل الكبير " صيدناوى" الواقع بشارع سيدى المتولى. وكان هذا المحل قد تم تأسيسة فى القاهرة عام ١٨٧٨. وبالاضافة الى فرعه بالاسكندرية المكون من عدة طوابق كان له خمسة فروع أخرى بمصر.

وكنا كثيراً ما نذهب الى محل " هانو"، ففيه كان يجد المرء كل ما يريد حقاً، من فطائر ديجون، حتى بارفان هوبيجان "كيلك فلور" والذى كانت أمى تفضله. وكان يوجد بالطبع العديد من المحلات المتخصصة الأخرى مثل: "الصالون الأخضر" للأقمشة الفاخرة، وميزون فرانسيه " للأصواف الفخمة.

أما الذين يحبون القراءة فكان باستطاعتهم الذهاب الى " ســيت دى ليفر" أو " فيكتوريا" ستيشنرى آند بوكس ستورز".

كما استقرت هناك محلات عالمية مثل " باتــا" للأحذيــة، و"ايتــام" للجوارب والملابس الداخلية.

وبعد جولتنا الشرائية المطولة كان يحين وقت العودة للمنزل. ولكن قبل صعودنا إلى الترام بمحطة الرمل، كنا نذهب سريعاً إلى محل الحلوى اليونانى " باستروديس" أو " ديليس " لنتشترى بعض قطــع الاكلــير أو الملبن أو غيرها من الحلوى الممتازة.

أما مقاهى وسط المدينة فكانت تغص بالرجال الذين يقرأون الجرائد هناك. وكان هؤلاء يحتارون عند الإختيار بين الكم الهائل من الجرائــد. فإما أن يشتروا إحدى الصحف العربية الكثــيرة، أو إحــدى الصحــف الاوربية التى تصدرها مصر مثل : "إجبسيان جازيت" أو " إجبشيان ميل " أو " لى بروجرية إجبسيان " أو جورنال دى إجيبت ". وبعــد الحــرب أضيفت إلى هذه بعض الجرائد والمجلات الاجنبية، على سبيل المثــال لا الحصر "لا " كوريير دلاسيرا" و" لندن ايلوستراند نيــوز" و " بيكتشــر بوست" والمجلة الأمريكية " لايف"، والمجلات النسائية مثل: " جــاردن دى مود".

أما الذين يريدون معرفة آخر أسعار أسهم القطن فكانوا يطالعون الجريدة الاقتصادية " لى جورنال دى الكسندريا ايه لا بورص اجيبسيان".

طبعاً لم يكن كل الناس يعملون فى تجارة القطن، أو فى شركة المنسوجات الهامة " فيلاتور نانتسيونال دى إجيبت". فقد كان هناك العديد من الشركات العاملة فى مجالات السلع الغذائية ومصانع الزجاج والورق والأثاث، وكذلك مصانع الدخان الكبيرة المعروفة باسم "لورنس" فى محرم بك.

خيرى وفاطمة

لم يكن من السهل دائماً العثور على خادم أمين يمكن الاعتماد عليه.
وقد كنا سعداء جداً بخيرى، صاحب القامة الطويلة والبشرة السمراء
الذى ينتمى الى قرية صغيرة جنوبى أسوان فى صعيد مصر.
وكان خيرى مبتسماً دائماً وكنا جميعاً نحبه.
أما فاطمة فكانت تقول من واقع خبرتها الطويلة: ـ كلما إزداد سمار البشرة كلما كان الرجل أميناً .

وذات يوم سأله أخى عن عدد زوجاته فرد خيرى متباهيا : عندى زوجتان، وإن شاء الله فاعطانى مالاً أكثر، فإنى سوف اتزوج الثالثة عند عودتى القادمة لبلدى.

وقد كان خيرى مسلماً ملتزماً، فكان يصلى يومياً فوق سطح المنزل وكان يصوم شهر رمضان، الذى كان يتزامن أحياناً مع أشهر الصيف الحارة. وكنا نعجب من إرادته القوية لتحمل العطش أثناء الجو الحار دون جرعة ماء، حتى انه كان لا يمضمض فمه بالماء.

وكان يوم الصيام طويلاً فهو يبدأ عند الفجر ولذا لم يكن مستغرباً أن يصير خيرى عصبياً فى النهاية اليوم.

فكان يقف دائماً بالنافذة المفتوحة منتظراً مدفع الأفطار، الذى يعلن غروب الشمس وانتهاء يوم الصوم.

وفى هذا التوقيت كانت الشوارع تخلو من الناس، حتى الترام والسيارات والاتوبيس تتوقف فى أى مكان حتى يستطيع العاملون بها تناول جرعة الماء الثمينة وشئ من الطعام.

وذات يوم ذهب خيرى مع والدى الى وسط المدينة، وهكذا إستطاع توفير ثمن تذكرة الترام فقال فى سعاده بالغة أنه سيشترى بما وفره بعض السجائر فقد كان يدخن ليلاً بشراهة.

وذات يوم سقط منه أحد الصحون فقال لأمى فى براءة لا تقاوم: " إنه أجل الصحن .." فلم تملك أمى سوى الابتسام.

وعلى النقيض من أبى كانت أمى تستطيع التحدث باللغة العربية فقط مع الخدم وأثناء الشراء فى السوق، فقد كانت لا تتقنها ولكنها كانت راضية طالما إستطاعت التفاهم مع الخدم على نحو ما، وأحياناً كان ينشأ عن ذلك مواقف طريفة.

كان برد الشتاء قارساً بالليل، وعندما كنت أضع يدى على الجدار الخارجى للحجرة كنت أشعر بالرياح العاصفة خارج المنزل.

وذات يوم كان والداى مدعوين خارج المنزل فطلبت أمى من خيرى أن يضع قنينة ماء ساخنه عند نهاية السرير، تحديداً " عند الرجلين". وعندما رجعت أمى، كانت تحلم بسرير دافىء إلا أن ظنها خاب عندما

وجدت السرير بارداً فاعتقدت أن خيرى قد نسى ما كلفته به. وعندمـــا بحثت عن القنينة لم تجدها فى الحمام فبحثت عنها فى كل مكان، وفـــى النهاية عثرت عليها" عند الرجلين" تحت السرير.

أما فاطمة، التى جاءت بعد خيرى الصعيدى، فكانت مختلفة عنه فلقد كانت من مدينة دمنهور بدلتا النيل.

كان ترتيب فاطمة الخامسة بين ثمانية أخوة وأخوات.

وعندما مات أبوها جاءت الينا وهى لم تكمل بعـــد ســن السادســة عشرة.

وسكنت فاطمة حجرة خيرى البسيطة فوق سطح ، وقد إبتهجت بعد أن صار لها حجرة مستقلة لآول مرة فى حياتها.

كان قوامها رشيقاً أما بشرتها فكانت بيضاء مقارنه ببشرة خيرى.

وعلى النقيض من " الغسالة" العجوز التى كانت ترتدى دائمــاً ثوبــاً أسود كانت فاطمة تلبس عصابة رأس محلاة بالخرز الملـــون وأثـــواب ملونة وإن كانت تفضل اللون البمبى.

وقد كان من عادات الطبقات الدنيا أن تلبس بناتها ثياباً ملونة، فإذا تزوجت لبست الملاءة السوداء. أما الطبقات العليا فكانت بناتها تلبـــس على أحدث صيحة فى باريس.

وكنا نحن الاطفال متعاطفين للغاية مع فاطمة.

وعندما كانت تسنح لها الفرصة كانت تلعب بعرائسى " ماركة السلحفاة" ففاطمة لم تعرف قط مثل هذه العرائس فى طفولتها.

فقط هذه العرائس المصنوعة من السكر، كانت أمها تشتريها لهافى أعياد شم النسيم[1] ، إذا توافر مال لذلك.

وكانت بعض هذه العرائس ملونة وذات ثياب ورقية بأهداب، مذهبة وملونة.

وقد حكت لنا فاطمة بسعادة عن أعياد شم النسيم فكانت أسرتها تخرج بعربة كارو ـ إلى الحقول، أو إلى الشوارع حيث يسود جو الأحتفال والبهجة.

فالبعض يقرع الطبول (الدربكة) وآخرون يعزفون على الناى. وفى معظم الأحوال كان يوجد " حاوى" أو " قرداتى" تقدم قرودة المدربة ألعاباً مسلية لقاء بضعة قروش قليلة. وكان الأطفال ينتظرون فى طوابير، حتى يحين دورهم فى ركوب أرجوحة خشبية بسيطة.

وبين حين وآخر كان يظهر "سقا" محنى الظهر" ويرش من قربة يحملها ماء على الارض حتى يقلل من حدة التراب الذى تثيره حركة الناس.

---

[1] لعل المؤلفة تقصد عيد المولد النبوى الشريف.

إحذر..فقد تخدعك الثياب فى مصر

كان الجلباب زياً موحداً يرتديه الرجال المصريون المنتمون للطبقات الدنيا. أما هؤلاء، الأفضل حالاً مثل موظفى الحكومة، وأصحاب المحلات الكبرى، وكذلك كل أبناء الطبقات العليا فكانوا يرتدون الملابس الأوروبية.

أما الذى يميزهم عن ال[illegible]ين الأوربيين فكان الطربوش.

وبالطبع كان هناك بعض الاستثناءات. فذات يوم كان أبى يزور "مسيو يابوجيان". تاجر السيارات الأرمنى، فرأى الحدث الطريف التالى: رجل بجلباب أزرق مخطط، يدنو من مسيو يابوجيان" ويطلب منه رؤية السيارة الأمريكية الحديثة، فقام التاجر بشرح المزايا العديدة والانجازات التكنولوجية للطراز الحديث من هذا النوع من السيارات. إلا أن الرجل لم يعر ذلك أدنى أهتمام، وبدلاً من ذلك أخذ يفتح أبواب السيارة ويغلقها بقوة. وعندما ارتسمت علامات التعجب على وجه التاجر قال له الرجل : عندما أذهب بنسائى الى وسط المدينة فإنى أريد أن يعرف الجميع أنى قد اشتريت سيارة جديدة.

ولما كان الرجل راضياً عن صوت اغلاق أبواب السيارة، فانه قام باخراج صرة نقود من جلبابة المكرمش، ودفع ثمن السيارة. وعندما ركب سيارته، كان هناك شاب فى ثياب رثة وقذرة، يحاول أن يبيع له باقة ياسمين.

أما رجال الشرطة فكانوا يرتدون زياً أزرق اللون فى الشتاء، وفـــى الصيف يكون لون الزى "بيج".

أما رجال الحرس الملكى فكانوا أصحاب طلعة مهيبة على جيـــادهم وهم فى زيهم الأبيض الناصع ذى الأزرار الذهبية.

وبينما كان المقهى (البلدى) يعتبر مركز سوق الابراهيميـــة، وكـــان رواده كلهم ــ تقريباً ــ من الطبقات الدنيا، كـــان الســـادة الموســـرون أصحاب الحلل "المفصلة" والطرابيش، يلتقون فى "أتينيوس" أو "بتيت" أو "جراند تريانون" فى شارع (سعد) زغلول. وهناك كانوا يجلســـون الـــى موائدهم بالساعات، يرقبون حركة الناس فى الشـــارع وهـــم يشربـــون القهوة التركية "التقيلة" التى صبت من "الكنكة"، وكانوا يروون عطشهم بكوب ماء مثلج. وفى يد كانوا يمسكون بمنشة يحركونها دائما لطـــرد الذباب، وفى اليد الأخرى كانت هناك المسبحة المصنوعة من الكهرمان. وأحياناً كانوا يقراون "الأهرام" بينما يقوم " البوهيجى" بتلميع أخذيتهم.

فى عزبة جميل بك : الكرم الشرقى أم الإسراف والتبذير

فى بعض أعياد الميلاد، قام جميل بك وزوجته بدعوتنا عدة مـــرات إلى "عزبته" المترامية الأطراف فى قها، المدينة الواقعة شمالى القاهرة.

وكان جميل بك قد ورث هذه الأرض الشاسعة عن والــده "الباشــا" الذى تعرف علية والدى أثناء عملة كمدير لمستشفى حلوان.

كانت سعادتنا غامرة ــ نحن الأطفال ــ بالسفر الى قها، بـــالطريق الذى يمر بالدلتا فنرى على جانبية تفاصيل الحياة الريفية.

وبالرغم من أن الطرق الهامــــة كـــانت ممــهدة، إلا أن صعودهــا وهبوطها، كانا يحدان من سرعة السيارة.

وما نكاد نودع مياه بحـــيرة المريوطيـــة الهادئـــة ونعـــبر ترعـــة المحمودية حتى نجد انفسنا فى مواجهة حقول البرسيم، الذى كان غذاء للحمير. ثم نمر بحقول البقول والقمح.

وبين حين وآخر كانت تظهر أكواخ طينية فقيرة فوق ســـهل الدلتــا الأخضر بلا نهاية.

وكنا نمر بالترع العديدة التى تمثل شريان الحيـــاة بالنســـبة لآهــل الريف. وكانت أشجار الكافور الفواحة والظليلة تحيط بهذه الترع. وكنا

نرى نساء بثياب سوداء، وهن يحملن الأوانى على رؤوسهن، ويمشين بهامات مرفوعة وخلفهن أسراب من الأطفال بملابس بالية.

أما الفتيات الصغيرات بملابسهن الملونة فكن يقبعن على الشـــاطئ، وهن يتابعن ضاحكات " بلبطة" صبيان القرية فى مياة الترعة القذرة.

وأحيانا كنا نضطر للتوقف، لارتفاع حرارة مبرد السيارة، فكنا نملأه بماء أحضرناه معنا. ولم يخطر قط ببالنا ــ لأسباب صحية ــ أن نـــأخذ من ماء الترعة البارد.

فقد كانت أمراض العيون شائعة فى منتصف الأربعينات فـــى مصـــر وبالاضافة الى ذلك كان هناك أيضاً مرض البلهارسيا، الذى كان يمثـــل مشكلة صحية أساسية للمصريين.

وهذا المرض ينشأ عن طريق ديدان تعيش فى الميـــاه الموبـــوءة، وتخترق جلد الانسان وغشاءه المخاطئ عند ملامســـة الميـــاه أو عنـــد شربها.

لم تكن سخونة مبرد السيارة، هى السبب الوحيد لتوقفنا، فأحيانا كنا نتوقف من أجل تحريك أرجلنا. وكنا نختار مكانا مناسباً على الطريـــق خارج القرى والا تعرضنا لهجوم شحاذى القرى فى لحظات قصيرة.

ومازلت أتذكر جيداً كيف لفت أبى نظرى ذات مرة الـــى طــائر ذى ألوان تميل الى الأخضر الرمادى والبرتقالى، وقــد وقـف علــى أحــد الأغصان الدانية لشجرة جازورين وأخذ ينظف ريشة بنشاط.

ومنذ هذا الحين لم أر مثل هذا الطائر المزركش إلا علــى الريفــيرا التركية.

وفى الريف كانت أبراج الحمام البيضاء ترتفع بين بيوت الفلاحيـــن الطينية الواطئة.

وكان هديل الحمام الواقف على فروع شجر السنط، يمثـــل تغيــيراً محبباً للفلاحين أثناء تناولهم وجبتهم الغذائية المتكررة والمكونـــة مــن الخبز والفول والبصل.

وأينما كنا نتوقف فى الريف، كنا دائما نسمع هدير الســـوافى التـــى تديرها ماشية معصوبة العيون . أما الشادوف والطنبور فكان الرجـــال هم الذين يديرونها.

وعند مرورنا بحقول الأرز أو الذرة لم نكن نرى أية ماكينة زراعية، فالعمل هنا قائم على الجهد الانسانى فقط.

كان متوسط دخل ٧٥% من الشعب المصرى قبل الحــرب العالميــة الثانية يبلغ ثلاثة جنيهات فى العام للفرد. ولذلك لم يكـــن مســتغرباً أن

يعمل أطفال الفلاحين فى مقابل مبلغ ضئيل عملاً مضنياً تحت رقابة مشرف يمسك بعض فى يده.

وفى رحلتنا الى قها كنا نمر بمدينة " دمنهور"، أحد المراكز الهامة لتجارة القطن، وكذلك بمدينة "طنطا"، ذات الأبنية الحكومية الفخمة والأسواق والجامع الكبير، جامع السيد البدوى. وعندما كنا نصل قها كان مضيفنا يستقبلنا بحفاوة بالغة، ويدعونا فوراً الى مائدة عامرة بالطعام الأوربى والمصرى. كنا لا نصدق أعيننا ونحن نرى هذه الكميات من الاطعمة، فى زمن الحرب.

وكان ببعض هذه الاطعمة نسبة عالية من الدهون، وكنا نحزن لأنها لا تمس، وأن بعضها يلقى بالزبالة.

فى البداية كانت تاتى "الملوخية"، التى لم أحبها، ثم تتبعها "الفلافل" فى صحاف، وسلطانيات صغيرةبها كفته تزين صينية ضخمة تحوى لحماً محمراً وحماماً مشوياً وفى صحاف أخرى يأتى ورق العنب المحشو بالأرز والنعناع. وكان يوجد أيضاً العيش البلدى وسلاطة الطحينة. أما الحلو فكان كنافة محشوة بالجوز وفوق ذلك كان يوجد تلال الفاكهة الطازجة، مثل : اليوسفى والبرتقال وثمار "المشملة"، مضافاً اليها ثمار الليمون الصفراء (البنزهير) ، الذى كان يحوى نسبة من السكر ولم تكن له رائحة.

بعد ذلك كنا ننتقل الى حجرة مزينة بالقيشانى الملون وفى وسطها كانت هناك نافورة تتهادى مياهها بهدوء.

كما كان بها ركن تغطى أرضه سجاجيد عجمية نفيسة، وفى ركنها الآخر مقاعد جلدية ومناضد منخفضة مطعمة بالعاج والصدف، وكانت تحمل أباريق قهوة صغيرة من نحاس منقوش، تحتها أطباق من الخزف. وفوق مائدة أعلى من الأخريات كان هناك طاقم شاى فاخر من الخزف الثمين الأبيض ذات حواف ذهبية. وكان إبريق الشاى وكذلك كل الاقداح محلاة بصور والدى جميل بك واخوته. وكان هذا الطاقم قد صنع خصيصاً لوالد جميل بك فى اوربا.

وبعد أن يمضى الكبار لركن القهوة يظهر خادم ـبثوب ثمين ـ حاملاً صينية فضة فوقها ابريق أخضر وإبريق فيروزى من الزجاج المنفوخ وأكواب صغيرة. وكان أحد الابريقين يحوى عصير الرمان أما الآخر فكان ملئياً بعصير المانجو، الذى كان - حينذاك- غريباً بالنسبة لنا.

وبالأضافة الى طعام الغداء والعشاء المتنوع فإنى مازلت أتذكر الفطور جيداً، الذى كان يتكون من زبادى طازج وخبز مصرى صنع بالعزبة، ومربى التين أو المربى النباتى التى صنعت من الزبيب الممتاز. وكان يضاف للشاى (التقيل) حليب مغلى. وكان هذا الحليب يحتوى على نسبة دهون عالية، حتى أنه بعد غلية كانت تتكون فوق سطحة طبقة سميكة من القشدة كنا نستخدمها بديلاً عن الزبدة.

وبعد الفطور كنت أقوم بزيارة الإسطبل الذى كان يضم سته خيــول عربية، كنت أطعمها بالبرسيم. وفى كل يوم كان يســمح لــى بركــوب الحمار تحت رقابة أحد الكبار. وأثناء ذلك كنــت أرى الفلاحيــن وهــم يحرثون الأرض بمحاريث بسيطة، عرفت منذ أيام قدمــاء المصريينــن وكنت أراهم يحصدون المحــاصيل بالمنــاجل أو ينزعونــها بأيديــهم ببساطة.

وذات مرة واتتنى فرصة مشاهدة عملية " الدرس" فرأيــت النــورج تقودة الأبقار. وأحيانا الجمال ــ ويدور طويلاً فوق المحصــول حتــى تتكسر الأعواد والسنابل ثم يتم فصل القمح عن القش بواسطة غربــال كبير.

فإذا ما شعرت بالعطش بعد هذه الجولة كنت أذهــب إلــى البســتان القريب. وكان "جميل بك" قد أذن لى بزيارة مزرعته الصغــيرة فــى أى وقت.

حديقة حيوان وجنة فواكه فى قها

وفى البستان كانت تصطف أشجار الموالح محملة بالثمــار، ثمــار البرتقال ويوسفى ــ فى حجم قبضة اليد ــ تلمع فى ضوء الشمس وبين هذه وتلك كانت هناك أشجار الليمون.

وفى ركن آخر من البستان كانت توجد أشجار المشمــش والرمــان وبعض نخيل البلح وكذلك بعض أشجار المانجو الهندى.

وبجوار البستان أقام " جميل بك" لابنته الصغيرة حديقة حيوان صغيرة. وبالرغم من زعيق الببغاوات الذى لم ينقطع كان هناك تمساح قد رقد متراخياً بجوار حوض السباحة الصغير لحد ما، وهو يغالب النعاس دائما. حتى الثعلب الصغير لم يكن يزعجه شئ فأخذ ينظر أمامه وكانه يحلم.

وعلى النقيض من ذلك كانت مراعى الغزلان والقرود تضج بالحركة.

وأمام الفيلا كانت توجد حديقة كبيرة تفوح ببعض الورود والياسمين. ومن بعيد كان بوسعى رؤية براعم شجر البوينسيانا الحمراء وكذلك البراعم الزرقاء لشجرة الجركنده وكانت هذه البقع الملونة ترتفع عن اللون الأخضر لأشجار اللاتانيا، وكذلك أشجار البامبو الرشيقة الباسقة. وفى وسط حديقة الورد الصغير اقيمت بركة بيضاوية الشكل لزراعة أقدم نبات عرفته مصر وهو "البردى".

إلى القاهرة وعبر الطريق الصحراوى

وفى أعياد الميلاد التى لم نذهب أثناءها الى قها، كنا نقوم بزيارة الجيزة، مدينة الأهرامات. فكنا نقطع طريقاً طوله ٢٠٠كيلومترا يربط الاسكندرية بالقاهرة، وهو الطريق الصحراوى الذى أنشأ عام ١٩١٧.

وكان هذا الطريق" الصحراوى" طويلاً ومملاً بالنسبة لأطفال فى عمرنا، إلا أنه كان أقصر من الطريق الزراعى. وكان على أبى أن يكون متيقظاً حتى لا ينعس أثناء القيادة. أما التغيير الوحيد الذى كنا نلحظة فى هذه الصحراء القاحلة فكانت براميل البترول الفارغة التى كنا نراها كل عدة مئات من الامتار على جانب الطريق، وكذلك أعمدة التلجراف

المصطفة وراء بعضها والتى تختفى سريعاً فى الأفق. وكنا أحيانا نرى أحد البدو وحيداً مع جمله أو نلحظ تلاً صغيراً فى الأفق، وعندما تقترب منه نكتشف أنه ليس سوى خيمة متواضعة للبدو.

وكنا نتوقف فى منتصف الطريق لاستعادة الحيوية بتناول المشروبات فى " الرست هاوس" لكى نستطيع إكمال رحلتنا بعد ذلك.

والذى لا أنساه، إننا عندما كنا نقترب من القاهرة كنا نرى ملامح الأهرامات التى ترتفع تدريجياً فى وسط الصحراء، وفى النهاية نراها عملاقة وساحرة الجمال.

فى تلك الأيام كان الهدوء العجيب يسود هذا المكان فلم يكن هناك أسراب السائحين ولا عادم السيارات الكرية أو بائعو التذكارات السياحية المزعجون، أو الترجمانات المطاردون للزوار، أو الشحاذون، لم يكن هناك شئ من هذا حول هذه الأعجوبة العالمية الفريدة.

كان هناك فقط بعض الجمال التى تمر بنا دون أن نحس بها تقريباً. هكذا كنا سعداء الحظ، فقط كان بمقدورنا الاستمتاع بهدوء تام بهذا المكان الأثرى فى الجيزة.

ومرة أخرى قمنا بزيارة أبو الهول، هذا التمثال المحير، وبعد ذلك قمنا برحلتنا الوحيدة على ظهور الجمال الى الصحراء القريبة.وقد رسخ

فى ذهنى للأبد صورة الأهرامات الثلاثة الفخمة وخلفها أفق ملون تغرب منه الشمس.

واليوم تمتد العاصمة ــ ذات الثلاثة عشرة مليون نسمة ــ حتى سفح الأهرامات.

أما فى الأربعينات، عندما كان سكان القاهرة لايزيدعددهم عن مليونى نسمة، كانت هناك بعض الفيلات القليلة الفخمة تحيط بالشارع العريض الذى يربط القاهرة بضاحية الجيزة.

وكانت جميع مظاهر الحياة فى شوارع القاهرة وفى أحيائها المختلفة تتسم بايقاع هادئ. فلم يكن هناك هذه الجموع الغفيرة من الناس الذين تمتلآ بهم الان الشوارع الكبيرة والصغيرة.

وأثناء زيارتنا للمواقع السياحية المختلفة لم نكن نقابل سائحين بالمعنى الحقيقى. و كانت زيارتنا للمتحف المصرى تأتى غالباً فى المقام الأول. وكنا نحن الأطفال أصغر من أن نقدر القيمة الحقيقية للتحف الفرعونية.

وكان أبى يشعر بأنه مسؤول عن تعريفنا بالقطع الفنية الهامة مثل التمثال الخشبى لأحد الكهنة المعروف باسم " شيخ البلد".أما نحن فكنا نعجب أكثر بالتمثال الحجرى الضخم للملك خفرع، بانى الهرم الثانى. وكذلك كنا نقف طويلاً أمام كنوز مقبرة توت عنخ أمون التى أكتشفها

العالم الانجليزى هوارد كارتر عام ١٩٢٢. وكان من الطبيعى ايضـــا ان نزور المتحف القبطى فى مصر القديمة.

ولم يكن يعجبنا هناك فقط هذه الاعمال الخشبية المطعمـــــة بالعـــاج وانما ايضا تلك "المشربيات" " الخيالية" التى كانت تزين معظم واجـــهات منازل المسلمين والمسحين حتى نهاية القرن التاسع عشر .

وبعد زيارتنا الثقافية كنا نذهب الى جروبى حيث يقدم الفستق الرائع أو الإكلير، أو كنا نطلب أحيانا وجبة شهية نتناولها فى شرفة الفنـــــدق العريق شبرد.

وحدث ذات مرة أن صديقنا "جميل بك" كان فى القاهرة اثناء ماكنـــا نحن أيضاً هناك. وسعدنا جداً عندما أستغل هو هذه الفرصة ودعانا الى غداء "إقطاعى" فى "عوامته" الراسية على ضفة النيل بالقرب من نـــادى الجزيرة الرياضى.

ولم يحدث أن غادرنا القاهرة قط قبل أن نزور "مغارة علاء الديـــن" أى خان الخليلى، حيث تصطف المحلات الصغيرة التى تبيـــع الحلــوى والروائح والبهارات، بالاضافة الى محلات صغيرة أخرى تتنافس علـــى بيع أكوام من بالات القطن والحرير بألوانها الصارخة المختلفة.

ومن بعيد كان يلمع بريق الخواتم والأقراط الذهبية والفضيـــة التـــى تقدمها محلات "الصاغة" ذات الفترينـــات الثمينـــة بمـــا تحتويـــه مـــن مجوهرات وأحجار كريمة. وفى أحد شوارع هذا الخان المتشعب كـــانت

توجد "ورش" النحاسين، الذين كــانوا يصنعــون الأبــاريق النحاســية والمنقوشة والطشوت المناسبة لــــها، والتـــى يســتخدمها المســلمون للوضوء. وكانوا يصنعون كذلك الصحون والصحـــاف وأدوات اخــرى لازمة للاستخدام اليومى.

وكانت معظم هذه المنتجات النحاسية تزدان بآيات من القرآن تمثـــل قطعا فنية فى الخط. وكانوا يستخدمون آلة حادة رفيعة لحفر هذا العمل الفنى، ثم يقومون بدق سلك من الفضة داخل هذه الحزوز. وكانت نفس الطريقة تستخدم فى زخرفة منتجات النحاس الأصفر بالفضةأو النحاس الأحمر.

أما بيع الاهرامات الصغيرة، وتمـــاثيل الفراعنـــة، ورأس نفرتيتـــى والمستنسخات البسيطة الأخرى، فلم ينتشر الا فى الســـنوات الأخــيرة عندما بدأت البازارات بيع مثل هذه السلع من أجل السائحين.

٨ مايو ١٩٤٥ : نهاية الحرب

حدث ذلك عندما كنت تلميذة بالمدرسة السويسـرية فـذات صبـاح فوجئنا بقيام اثنين من موظفى محلات "فليوكيجـر" للحلويـات بتوزيـع الحلوى علينا أثناء الفسحة وعندما سألنا عن سبب هذه الهدايا جاءنـا الرد:

لقد وُقعت اليوم (٨ مايو ١٩٤٥) إتفاقية وقف اطلاق النـار بعـد سبع سنوات من الحروب، لم تكن لأبى وأمى اثناءها علاقة بأقاربهما فى سويسرا الا من خلال المراسلة فقط. وكانت تمر رشـهور طويلـة تنقطع فيها الأخبار عنهما. ولذلك كانا مشتاقين للسفر بنا الـى "بـازل" ولوسرن فى صيف عام ١٩٤٥، الا ان ذلك كان مستحيلاً فى هذا الحين. فأوروبا كلها تقريباً كانت عبارة عن أطلال. وكان عبور البحر المتوسط يشكل خطراً حقيقياً بسبب حطام السفن والألغام البحرية الكثيرة، وفـوق ذلك فلم يكن هناك تصريح لسفر المدنيين عن طريق البحر.

وفى النهاية استطاع أبى فى ربيع عـام ١٩٤٦، وبمسـاعدة أحـد معارفنا، الذى كانت عائلته تريد السفر ايضا الـى سويسـراً، اسـتطاع العثور على سفينة بضائع سويدية، كان بها كابينتان واسعتان.

الا ان بعض المصاعب واجهت أبى، فكان عليه ان يتحلى بالصبر او يدفع كثيراً من "البقشيش" لاستيفاء كل الشروط والاسـتمارات اللازمـة لسفرنا الى سويسرا. وكما حدث فى عام ١٩٣٨، عندما اضطرت أمـى للسفر وحدها معى، فإن أبى لم يستطع السفر معنا للمرة الثانية بسـبب

ضرورة بقائه لرعاية مرضاه. ولم يلحق بنا الا بعد ثلاثة شهور كاملة عندما نجح فى النهاية فى العثور على زميل له، يقوم بهذه المهمة فـــى غيابه. واخيراً حان وقت السفر، ففى يوم "أحد الزعف" من عام ١٩٤٦ أوصلنا أبى الى الميناء الكبير فى الطرف الغربى من المدينـــة، وكـــان اسم الميناء فى العصور القديمة يعنـــى "مينـــاء العـــودة الحميـــدة" أو "ايونوستوس". كانت سفينتنا "إس/اسفرنبو: المتجهة الى جنوة، راسية على الرصيف الرئيسى، الذى لم يكن بعيداً عن مخازن وعنابر القطـــن، حيث كان القطن ينقى ويكبس ثم يعبأ. وعندمـــا ذهـــب أبـــى لإحضـــار أمتعتنا، التى كان شحنها قبل أيام لدى شركة البواخر، قمنا نحن بمراقبة أحداث الميناء السريعة.

فهنا كانت تصل الالاف من بالات القطن من أنحاء مصر، كل يـــوم. وكان رجال شبه عراة يقومون بدفع هذه البالات الضخمة. وحمير وبغال يجرون عربات عليها تلال عالية من بالات القطن.

أثناء ذلك قامت السيدة "فيرتس" وطفلاها ــ اللذان كانا فى عمـــرى وعمر أخى ــ بتوديع زوجها.

فالسيد "فيرتس" لم يستطع هو الآخر اصطحاب زوجتـــه واضطـــر للبقاء فى مصر. وحان الوقت لتوديع والدنا، فقد اوشكت سفينتنا علـــى الرحيل.

وصعدنا على السلم المهتز، الذى كان على ان اجتازه مـــرة اخـــرى رغما عنى.

بعد ذلك بقليل تم رفع الهلب وهدرت ماكينات السفينة التـــى بــدأت مغادرة الميناء .

أما نحن فوقفنا طويلاً على ظهر السفينة ننظر إلـــى أبـــى والســيد فيرتيس حتى صارا نقطتين صغيرتين على رصيف الميناء .

بعد ذلك بقليل تم رفع الهلب وهدرت ماكينات السفينة التى بدأت فى مغادرة الميناء.

أما نحن فوقعنا طويلاً على ظهر السفينة ننظر الـــى أبـــى والســيد فريتش حتى صارا نقطتين صغيرتين على رصيف الميناء.

زميلاتى فى مدرسة البنات بالاسكندرية من كـــل شعــوب الارض :

أثناء القرن الماضى قامت الارساليات التبشيرية المسيحية بتأســيس مدارس انجليزية كثيره فى مصر.

وكانت الاغلبية من الشعب المصرى تتحدث اللغة العربية، الا انه من بداية القرن بدأت الطبقات الغنية فى التحدث باللغة الفرنسية وفيما بعـــد بالانجليزية.

ولكن، على أيامنا، عندما بدأت مجانية التعليم بـــالمدارس، صـــارت اللغة العربية أهم من اللغات الاجنبية، وذلك بفضل تأثير الروح القومية المتنامية.

بعد إنتهائى من الفصل الرابع الابتدائى أدخلنى والـــــدى "المدرســـة الاسكتلندية للبنات[1] ، لكى اتعلم اللغة الانجليزية. وكان معظم مدرســـى هذه من المدرسة الارسالية من الناطقين باللغة الانجليزيـــة. ومـــازلت اتذكر "ميس بلاك" التى عملت كمدرسة ارسالية لعدة سنوات بـــالصين. وكنا نتعجب كثيراً لقدرتها على كتابة الحروف الصينية العجيبة.

وقد قمت بتسجيل أسماء زميلاتى، بالفصل فى ألبوم مذكرات، وكان عددهن ٢٥ فتاة. وعندما أقرأ اسماءهن، أجدهن يمثلن كل بلاد البحـــر

---

(1) Socttish School For Girls

المتوسط تقريباً، فمنهن على سبيل المثـــال : مــاجدة كــامل، دنــيزى هالين،كيكى بارثنيادس، سونا يغيان ، فوفو ايزاتاليو، سيمون زيتونـــة، فيفى الفار، وهناك اسم انجليزى واحد هو بيجـــى دور وبجـــواره اســـم الهندية أوشا بافيا.

وبينما كنا نلتزم اثناء "الحصص" بالتحدث بلغة الدراسة فقـــط، كنـــا بالفسحة نتحدث خليطا من اللغات المختلفة. فالجمل التى كنا نستخدمها كانت مكونة من كلمات من لغاتنا العديدة، بينما كان البعـــض يتكلمـــون فقط باللغة اليونانية أو الأرمينية أو الفرنسية الخاصة بشعـــوب البحـــر المتوسط. وكانت المواد التى ندرسها كثيرة، وبجانب الانجليزيـــــة كنـــا نتعلم أيضا الفرنسية والعربية، والأخيرة كنت اتعلمها بمجـــــهود كبـــير وحماس قليل. ولحسن حظى كانت "مدام فهمى" ــ مدرسة اللغة العربية ــ قد تعودت ان تنادى اسماءنا بالترتيب الأبجدى لنقرأ صفحـــــة مـــن كتاب المطالعة العربية. وطبقاً لهذا الترتيب الأبجدى كان اسمى يأتى فى المؤخرة، وهكذا كنت استمع الى النص ــ المطلـــوب قراءتـــه ــ عـــدة مرات من زميلاتى اللاتى سبقننى فى ذلك، فلما يحين دورى أكـــون قـــد حفظت النص تقريباً. فكانت مدام فهمى تقول لى كل مرة : **"Je ne comprend pas : tu lis si bein L'arabe mais en dictee tu es une catastrophe"**

"إنى لا أفهم : إنك تقرئين العربية بصورة جيدة جداً، اما فى الاملاء فأنت كارثة".

كان على كل التلميذات ارتداء زى موحد، كالمتبع فى كل المـــدارس المصرية والاجنبية، فيما عدا المدارس السويسرية. وكان هذا الزى فى

الغالب عبارة عن "مريلة" طويلة الاكمام من القطن، وذات الوان داكنة بياقة بيضاء أو عرى ملونة. أما مدرستنا فكانت تلزمنا بارتداء "مريلة" ذات لون احمر فاتح وياقة بيضاء وحزام أحمر. وكانت مدارس الارساليات الفرنسية تكافىء أوائل تلاميذها وتلميذاتها بمنحهم ميداليات، كانوا يعلقونها بفخر على صدورهم.

وبالرغم من أنى بذلت قصارى جهدى لتعلم اللغة العربية الا أن النجاح لم يحالفنى فى ذلك، فلما عجزت عن ذلك ألحقنى والداى بمدرسة اخرى حيث تم اعفائى من التعلم الاجبارى للغة العربية. وهكذا صرت تلميذة بمدرسة "انجليش جيرلز كولدج"[1] الراقية لمدة ثلاث سنوات قبل عودتى الى سويسرا. وكانت هذه المدرسة تطبق تماماً النظام المتبع فى المدارس الانجليزية الخاصة المعروفة باسم " المدارس الاهلية".

وكان هناك ما يسمى بالـ : **"Day Girls"** وهن التلميذات اللاتى يعدن كل يوم لبيوتهن، أما الأخريات فكان يطلق عليهن **"Boarders"** أى المقيمات بالمدرسة، اللاتى كانت أسرهن تعيش فى بلاد بعيدة مثل سوريا وفلسطين.

وكانت المدرسة واسعة ولها عدة أفنية وحمام سباحة خاص. وكان لدينا قاعة إحتفالات كبيرة بها مسرح كنا نعرض عليه كل عام مسرحيات شكسبير ومسرحيات كلاسيكية انجليزية أخرى. وهنا كان علينا ارتداء نوعين مختلفين من الزى ففى الصيف كنا نرتدى زيا

---

[1] – كلية البنات الانجليزية بالاسكندرية.

موحداً بسيطاً عبارة عن ثوب من القطـــن ألوانـــه ورديـــة وخضـــراء وصفراء وبيضاء أو زرقاء مع جاكت رمادى اللون للأيام الباردة. أمـــا فى الشتاء فكنا نرتدى "الجوب" والبلوزة بنفس ألوان الزى الصيفى، مع "كرافتة" رمادية" وجاكت رمادى.

المجتمع السويسرى فى الاسكندرية

كان اليونانيون وغيرهم من مهاجرى بلاد البحر المتوسط، المقيمين بالاسكندرية والمنتمين للطبقات العليا والوسطى، قد تعودوا منذ زمن بعيد أن تكون لهم حياة اجتماعية نشطة سواء بالصيف او الشتاء ولما كان لهؤلاء خدم يقومون بالأعمال المنزلية فقد كان بإمكانهم اقامة الحفلات العديدة، فكانوا يتبادلون الدعوة لحفلات الشاى والسهرات وحفلات الكوكتيل.

وكان التعارف بينهم يتم أثناء مشاهدة سباق الخيل بنادى "سبورتنج" الذى قد أسس فى عام ١٨٩٠، أو نادى "الاتحاد" الراقى، أو نادى اليخوت الملكى.

فى احدى الحفلات، التى شارك فيها بعض رجال الدولة، وقع حادث طريف. فقد كان الحاضرون يعرفون عن أحد الضيوف، انه تعود اثناء هذه الحفلات الكبيرة أن يملأ جيوب سترته وبنطلونه بقطع الحلوى الموضوعة فى كل مكان. فقرر البعض إعطاء الرجل درساً لدى أول فرصة سانحة، فبعد أن جلس الرجل الى مائدة عامرة، وبعد تناول الطعام الفاخر تم تقديم القهوة مع الفطائر والشيكولاتة المحشوة.

وأمام الرجل المقصود تم وضع طبق كبير من الكريستال وقد ملىء بالشيكولاتة المحشوة. فصار صاحبنا ـ المريض بالسرقة - يتحين الفرصة المناسبة بفارغ الصبر لكى يملأ جيوبه بالشيكولاتة.

وفجأة انقطع التيار الكهربى، وقبل ان يستغل الرجل هذه الفرصـــة، قام أحدهم بتغيير طبق الشيكولاتة بطبق آخر ملىء بـــالقشدة. وعندمـــا عاد التيار وأضاءت الأنوار قاعة الطعام، كان صاحبنا يتمنى ان تبتلعـــه الأرض بعد أن غرقت يداه بالقشدة.

أما السويسريون فكانوا يحتفلون غالبا بمناسباتهم الاجتماعية فـــى النادى السويسرى.

وكان من أهم نشاطات هذا النادى هو السوق الخيريـــة التـــى كـــان يقيمها سنوياً وكان يتم تحضيرها والتخطيط لها قبل ذلك بوقت كـــاف. فكانت بعض السيدات المهتمات بالعمل اليدوى يلتقين فى فيلا إحداهـــن كل يوم اثنين. فاذا كان الجو صحواً جلسن فى الحديقة تحـــت اشجـــار وارفة الظل. وكان بعضهن يحكن ثياباً والبعض الآخريعمل اشغال الابرة او الكروشيه بحماس استعداداً لهذه المناسبة الهامة. واثناء ذلـــك كـــن يتحدثن بحيوية عن الأطفال والموضة أو عن الخدم وأحوالـــهن فتقـــول إحداهن مثلاً انها اخيراً حصلت على خادم أمين ونشيط.

وأحيانا كن يتهامسن حول تفاصيل أحـــدث قصـــة حـــب، أو آخـــر الفضائح التى شغلت السويسريين، واثناء ذلك تقوم المضيفـــة بالعنايـــة بضيفاتها، فتقدم لهن العصائر الطازجـــة أو الشـــاى. بالإضافـــة الـــى السندويتشات والفطائر اللذيذة، التى تقدمها على صحاف فضية.

أما قاعة الاحتفالات الكبرى بالنادى بالسويسرى(بشارع امبرواز رالى رقم ٢٤ بحى الشاطبى) فكان يتم تزيينها لهذا اليوم. أما السيدات فكن يرتدين الزى القومى السويسرى ويقفن متباهيات خلف بضاعتهن المتنوعة من مفارش مصنوعة من أرقى انواع القطن المصرى الى ملابس الأطفال المتنوعة والمرحة. وبجوار ذلك كانت تقدم الفطائر والتورتة والشوكولاتة السويسرية.

وفى أحد أركان الصالة كان الصغار يستطيعون تجربة حظهم فى الصيد : فقد وضعت من أجلهم علب هدايا صغيرة فوق منضدة وكان عليهم ان يصطادوها بشص.

وعلى منضدة أخرى كان يوجد ايضا شعار سويسراً المصنوع من الخشب، وكذلك لعبة موزاييك الصور السويسرية، التى تعتبر قطعة فنية.

وكنا نحتفل هناك أيضا بأعياد الكريسماس، بأداء تمثيلية الميلاد وتزيين شجرة الميلاد، وكذلك بالعيد القومى فنحمل الفوانيس الورقية الملونة ونوقد ناراً متأججة، كما كنا نغنى النشيد القومى بحرارة. وكان بديهيا أن نقيم أيضا حفلات الرقص العديدة، الخاص منها فى اطار محدود، أما الأخرى مثل الحفلات التنكرية وحفلات رأس السنة فكنا نرتدى ملابس السهرة الفاخرة او الازياء القوميية السويسرية.

وكنا نقيم ايضا الاحتفالات الثقافية، فتعقد الندوات ونعرض المسرحيات، والأفلام السويسرية الشهيرة.

كما كنا نعقد الاجتماعات العامة. اما المباريات الرياضية مثل الرماية والتجديف والبولينج فكانت تجد اهتماماً ملحوظا. وكانت شهرة البولينج قد ذاعت خارج جدران النادى.

وعلى سبيل المثال، كانت الجريدة السويسـرية[1]، المهتمـة بنشـر تفاصيل نشاط النادى، قد قامت ـ فى عددها الصادر يوم ٢٨ مايو عام ١٩٤٧، بنشر دعوة للاعبى البولينج لتسـجيل اسـماءهم وعناوينـهم وأرقام هواتفهم لدى "محمد "سكرتير النادى السويسرى، حتى يتم تنظيم مباريات فى خلال ٢٤ ساعة مع فرقة بولينج مـن طـاقم السـفينتين الامريكيتين "هيمان" و"ديكسون" التابعتين للاسطول الامريكى، واللتيـن كانتا ترسوان أمام الميناء.

فى مواجهة الملك فاروق

وفى مرة أخرى نشرت هذه الجريدة فى يـوم ٢٩ نوفمـبر ١٩٤٤ خبراً عن مباراة بولينج شارك فيها صاحب الجلالة الملك فاروق، الـذى كان يتردد غالبا على النادى السويسرى للعب البولينج.

وقد اعترتنى دهشة عظيمة عندما وجدت نفسى لأول مـرة وجـها لوجه مع الملك فاروق، وكان ذلك قبيل سفرى الى سويسرا.

---

[1]- " Journal Suisse de Egypte et du proche Orient"

فقد قام احدهم بتقديم والدى وطبيب آخر للملك، وهكذا سنحت لى الفرصة لمشاهدته عن قرب.

لقد كان مختلفا تماماً عن هذا الحاكم الذى عرفته من خلال الصور التى كنتُ أراها في كل المجلات الكبيرة والمكاتب الرسمية.

وكذلك كانت طوابع البريد، وبالذات البنية (١مليم) والبرتقالية (٢مليم) تحمل صورة وسيمة للملك الشاب، اما تلك الطوابع الخضراء (٣٠مليم) والتى ظهرت مؤخراً وفى خلفيتها الاهرامات فكانت تحمل صورة لملك بدين لحد ما.

أما هذا الرجل، الذى انحنى والدى أمامه، فكدت لا أتعرف عليه. أما الذى لم اتوقعه فيه فهو شعره الأشقر وعيناه الزرقاوان تلك الملامح التى تشي باصله الألباني. بالاضافة إلى زيادة وزنه الواضحة.

واذا طرحنا جانباً النادى السويسرى بأنشطته العامة المتنوعة، وحفلاته الخاصة ، فانه كان بمقدورنا الذهاب الى دور السينما. الكثيرة، التى تعرض افلاماً بلغتها الأصلية. وكانت اغلب هذه الافلام امريكية وفرنسية وانجليزية الصنع.

أما صناعة السينما المصرية فكانت لا تزال فى طور المهد، ولم تسنح لنا الا فرص ضئيلة لمشاهدة فيلم مصرى.

ولما كانت هذه الافلام ترتبط بتقديم اسلوب الحياة المصرية فانـــها كانت تمثل تسلية عظيمة.

أفلام الاربعينات المصرية : الراقصة تخرج من الفنجان

ومازلت أتذكر جيداً فيلماً مصرياً عرض بسينما "ســتراند" بمحطـة الرمل، وبالذات هذا المشهد الذى كان يعرض عدة فناجيل قهوة رصـت فى صفوف منتظمة، وفى وسط هذه المجموعة كان هناك فنجـال اكـبر حجماً، وعندما دقت الموسيقى العربية، خرجت من هذا الفنجال راقصـة تأتى بحركات خليعة.

وفى مرة أخرى رأيت تنويهاً عن عرض قـادم للمثلـة الفرنسـية مارتين كارول، التى لم تكن حينذاك تلتزم كثيراً بالاحتشام،رأيتها عارية خلف منديل حريرى يمسك به خادم وهى تتقدم لتقفز فى "بـانيو" علـى شكل قوقعة، وفجأة هب أحد المشاهدين من الصف الامامى واقفاً علـى اطراف أصابعه واشرأب بعقنه للأمام: ظنا منه انه يستطيع ـ هكـذا ـ ان يخطف نظرة عل جسد مارتين العارى.

وكانت الافلام الامريكية والاوروبية تحمل ترجمة انجليزية وفرنسية، أسفل الشاشة، وعلى يمينها كانت توجد الترجمة العربية. وفـى بدايـة العرض السينمائى كان يعزف السلام الوطنى المصرى فى نفس الوقـت الذى كانت فيه صورة الملك فاروق تملأ الشاشة.

وبالاضافة الى عروض الافلام الكلاسيكية الفرنسية والانجليزية كان المجتمع الثقافى العالمى بالاسكندرية يموج بمعارض الفـــن التشكيلـــى، وعروض الفرق الموسيقية، والمسرحية وغالباً ما كان يتم دعوة فنانين مشاهير وشخصيات عظيمة من أوروبا لزيارة لمصــــر، وذلــك اثنـــاء سنوات ما قبل وبعد الحرب.

فمازلت أذكر ريستنال "شوبان" حيث عزف على البيانو الموســـيقار الأعمى الماهر "جورج ثميلى" وكذلك السهرة الغنائية التى أحياها مغنى الأوبرا الايطالى الشهير "فيتو جوبى"، ولا استطيع ان انسى ايضاً زيارة الجنرال "جيسان" للنادى السويسرى. وقد قام ثلاثتـــــهم بـــالتوقيع فـــى الأواتوجراف الخاص بى.

مفاجآت غير سارة

فى أيام الآحاد، التى لم نكن نزور فيها "جدنا" ويكون الجـــو بـــارداً لدرجة اننا لا نستطيع الذهاب الى الشاطىء، كنـــا فـــى الغـــالب نذهـــب بالسيارة الى حديقة الحيوان القريبة من ترعة المحمودية.

كنا ننزل عدة درجات وننحرف يميناً لنصل الى القفص الكبير، حيث كان ملك الغابة فى الغالب مستلقياً فى تراخ فى أحد الاركان وأخذ يصدر شخيراً عالياً. وفى الاقفاص المجاورة كانت توجد القرود المختلفة.أمـــا ماكان يثير استياء ابى الشديد، فكانت مجموعة من الشباب المصـــــرى، التى كانت تتواجد هناك دائماً ولا تتوقف عن ممازحة القرودبمرآة فـــى أيديهم، وقذفها بالفول السودانى. كانت القرود خلف السلك الرقيق تبدو وكأنها فى انتظارنا لنطعمها بالزبيب. ثم نمر بعد ذلك بمرعى الغـــزلان

التى كانت تنظر الينا بعيونها الناعسة نظرات حزينة توحى بأنها تفتقد مراعيها الشاسعة فى وطنها.

وعندمان كنا نتوقف امام سباع البحر كنا نطلب من أبينا ان يعطى الى الحارس بعض " البقشيش" ، و ما ان يرى القطعة المعدنية تلمع فى يد أبى حتى يخرج بعض السمك من صندوق ثم يلقى به الى سباع البحر.

وفى حوض مقابل، ملىء بالمياه القذرة، كان فرسا نهر سمينان يتدحرجان هناك.

وهنا لا تحتاج لدفع " بقشيش" حتى تشاهد الحارس وهو يدفع بحمل برسيم الى حلق فرس النهر.

وكان من الطبيعى ان نزور ايضا الفيل الهندىوالببغاوات الملونة والزواجف المختلفة.

وفى احد الاقفاص كانت توجد الفهود الرقطاء. وفى كل مرة كنت اقف فيها امام هذا القفص، كنت اجد نفسى مضطرة لتذكر الحادثة المرعبة التى وقعت للسيدة" اوتواى".

فقد كانت هذه الانجليزية اللطيفة، احدى معارف والداى القدامى، وكانت قد عاشت سنوات طويلة فى الخارج، وكانت تحكى لنا عن المغامرات التى عاشتها بالهند.

بعد ان فقدت السيدة "أوتواى" خطيبها فى الحرب العالميـــة الاولـــى تقدمت بطلب للعمل كمربية خارج اوروبا. وبعد بحـــث طويـــل وجـــدت وظيفة بمرتب جيد كمربية لدى مهراجا ثرى. وكان هذا المهراجا يسكن مع زوجته وأطفاله الثلاثة فى قصر خرافى وسط بستان واسع، تصـــل حدوده الجنوبية الى مياه تجرى برتابة، وكانت هذه المياه بمثابة حدود طبيعية.

وكانت غابة من أشجار البامبو تحيط بالمكان من الجـــهات الثلاثـــة الأخرى. وفى ظل اشجار الجركندة ـ ذات البراعم البنفسجية، واشجـــار البامبو وجدت السيدة "اواتوى" مكاناً تستطيع أن تقضى فيه مع الاطفال أغلب أيام العطلات.

وفى أحد هذه الايام وبعد أن قام الأطفال بوضع بساط علـــى الأرض وصبروا حتى وزعت السيدة "اوتواى السندوتشات اللذيذة عليـــهم ثـــم صبت لكل منهم شاياً مثلجاً، وكان الأربعة يشعرون بالســـعادة لتنـــاول الطعام فى الهواء الطلق، وبعد أن أعيدت الأكواب وأوانى الطعـــام الـــى السلة استلقى كل منهم على الارض.

وبالرغم من عدم معرفة أى إنسان بأمر هذه الرحلة، إلا أن صاحبتنا أحست بشعور غريب بأن هناك من يراقبهم فتلفتت حولها وفجـــأة رأت على بعد أمتار قليلة، فوق أحد الفروع الضخمة ملامح فهد أسود أخـــذ ينظر اليها بعيون رمادية لامعة. فأدركت أنها لو لفتت إنتبـــاه الأطفـــال للخطر الذى يهددهم لصرخوا وهم يحاولون الهرب كان ذلـــك ســـيحرك

الفهد المتربص للهجوم عليهم. وبالرغم من أن جسدها كله كان يرتجف إلا أنها ـ بهدوء تام ومدهش ـ تماسكت تماماً، وطلبت من الأطفال التزام الصمت والنهوض ببطء تام، ليشقوا أقصر الطرق الى المنزل. وعلى التساؤل الذى رأته فى عيون الأطفال تمتمت بصوت لا يسمع تقريباً بأنها فجأة أحست بدوار وأن صداعا رهيباً قد أنتابها.

وبمنتهى الهدوء وعلى أطراف أصابعهم غادر الجميع المكان. وبالرغم من أن المنزل لم يكن بعيداً، إلا أن طريق العودة بدا لها بلا نهاية.

وفى مرة أخرى ذهبت فى الفجر الى حجرة نومها لتاخذ منديلاً من "الكومود" فإذا بها أمام مفاجأة غير سارة. فعندمافتحت الدرج لتخرج المنديل، فإذا بيدها تصطدم بشئ ناعم وبارد. فادركت ـ وهى فى حالة فزع ـ أنها حية صغيرة، كانت ـ لحسن حظها ـ متخمة بالأكل ورقدت لتستريح على مناديلها أما الذى لم تفهمه فهو كيف تسللت هذه الحيةإلى " الكومود" المغلق. وفى النهاية عرفت الاجابة : فالالواح الخليفة للكومود لم تكن محكمة، وهكذا وجدت الحية فتحه صغيرة نفذت منها.

لماذا يتحدث الأوربيون كثيراً عن الجو؟

لما كانت الشمس فى الإسكندرية تبزغ صباح كل يوم فى أفق سماء زرقاء بلا غيوم، فانه لم يكن هناك مجال للحديث عن الجو.

إلا أنه فى شهور الشتاء ــ بالذات من ديسمبر حتى فبراير ــ تكون الدلتا والمدن الساحلية مثل الاسكندرية أكثر برودة عنها فى القــاهرة والوجه القبلى. فالأسكندرية تتعرض لهبوب الرياح القادمة من البحــر المتوسط.

وكانت النزهة على الكورنيش أثناء هبوب الريح وتلاطم الموج متعة لا تنس بالنسبة لنا كأطفال. وأحيانا كانت السحب السوداء تغطى السماء فى لحظة ثم تمطر بعد ذلك بقليل. فكنا نحتمى بأقرب المنازل أو ننتظر بفارغ الصبر أحد الحناطير.

وبالرغم من عدم استمرار المطر لوقت طويل، إلا انه غالباً ما كانت تهب الرياح قوية وباردة. أما البرد فلم أره سوى مــرة واحــدة فقــط، وكذلك الجليد لم أعرفه إلا عن طريق الكتب أو الحكايات. وكــان مــن المألوف، أنه عندما ينتصف شهر ديسمبر تقوم المحلات بلصق نتــف من القطن على واجهاتها حتى تعطى الاحساس بقدوم أعيــاد الميــلاد. ولذلك لم يكن مستغرباً أن أحس بخيبة أمــل، لــدى زيــارتى الآولــى والطويلة لسويسرا بعد الحرب عندما رأيت لأول مرة فى حيــاتى نــدف الثلج الصغيرة وهى تسقط من السماء.

أما درجة الحرارة (فى الاسكندرية) فلم يحدث قط أن تراجعت إلــى الصفر. ولنشكر الله على ذلك وإلا فماذا كان ســيفعل هــؤلاء الصبيــة المشردون بلا مأوى.

وكان هؤلاء يرتزقون من جمع أعقاب الســجائر فــى أكــواز مــن الصفيح ثم يبيعونها مقابل مبلغ ضئيل.

ومازلت أتذكر أننى، صباح يوم بارد، رأيت بعض هؤلاء المســـاكين وهم يأكلون بنهم بعض عروق القرنبيط الملقاة بالزبالة.

أما بين شهرى مارس وأبريل فكنا نعانى من الريـــاح الصحراويـــة الحارة والجافة، المعروفة باسم " الخماسين". فيتحول الأفق الأزرق الى سماء رمادية تختفى فيها الشمس.

ويغطى الرمل والغبار كل شئ ويصلان الى أضيق الشقوق، وتلتهب العيون و"تدرس" الأسنان. أما تنظيف المنازل فى هذا الوقت فلـــم يكـــن مجدياً، لأن الرمل الدقيق يغطى كل شئ بعد وقت قصير للغاية.

وفيما بين شهرى مايو وأكتوبر يصير الجو حـــاراً وجافـــاً. وتبـــدأ الحرارة فى الارتفاع مع بداية شهر مايو لتصل الى ذروتها خلال شهرى يوليو وأغسطس.

أما مياه البحر فكانت تحتاج لوقت أطول حتى ترتفع درجة حرارتها. ولذا لم نكن نستطيع نزول البحر فى أول شهور الصيف، ولكننـــا كنـــا نستطيع الاستحمام فى مياهه حتى منتصـــف نوفمـــبر دون أن تصطـــك أسناننا.

وكانت كافة المدارس تغلق أبوابها من شهر يوليو حتى نهاية شهر ستمبر.

أما هؤلاء الذين كانوا يستطيعون الفرار من قيظ القــاهرة، فكــانوا يجتاحون الاسكندرية وشواطئها الممتدة، وبـــالذات خليــج "ستانلى" المفضل لهم.

وأحيانا كثيرة كان المرء لا يستطيع رؤية الرمال من كثرة المظــلات الملونة المصطفة بجوار بعضها البعض. ولم يكن كل الناس يجلســـون تحت المظلات لأن معظمهم كان يستحم فى البحر، بينما البعض الأخــر يجلس أمام كبائنه الظليلة.

ولم يكن البحر دائماً هادئاً، فأحيانا كانت ترفع الراية السوداء، وهذا يعنى ان النزول الى البحر ممنوع. ولم يكن هذا يمنعنا بالطبع من دهان بشرتنا بكريم "تيفيا".

كوليـــــرا : ١٩٤٧

وفى شهور الصيف تهب الرياح فتثير الرمال لتعكر ميـــاه البحـــر، وعلى النقيض من ذلك كان البحر فى شهر سبتمبر هادئاً ومياهه صافية تدعوك للبقاء طويلاً بجوارها.

ولكن فى شهر سبتمبر من عام ١٩٤٧ شعرنا بالانزعـــاج الشديـــد، عندما أعلن عن منع النزول الى البحر.

فقد كان وباء الكويرا قد تفشى فى شهر يوليو من نفس العام. ولـــم يكن هذا الوباء قد ظهر فى مصر منذ عام ١٨٨٣.

وفى بداية انتشار هذا الوباء – بعد نهاية الحرب – لم يعلن إلا عن وفاة بعض الحالات الفردية. ولكن بعد بضعة أيام ارتفع عدد الضحايـــا إلى ستين شخصاً.

وكنا نفهم جميعاً أن الصحف لا تذكر عدد الضحايا الصحيح خوفاً من إنتشار الفزع.

وقد تفشى الوباء بصورة واسعة خاصة فى الريـــف حيـــث يعـــانى الناس من الفقر المدقع ويجهلون معنى " مياه شرب نقية"، "وصـــرف صحى". ثم إنتشرت حكايات – لا تصدق – فى كل مكان.

فقد كان النيل بفروعة وترعة يمثل منذ القدم جزءاً أساسياً فى حياة الفلاح. إذ كان يستحم بمائة ويستخدمه ليقضى حاجته، ولغسيل الملابس والأوانى وللطبخ. وأحياناً كانت تسبح على صفحته جاموسة ميتـــة أو غيرها من الطيور.

وكان للقرى البعيدة عن النيل آبارها.

والان حين تفشت الكويرا – وبمجرد الإعلان عن حالة وفاة فى أية قرية فإن رجال الصحةيأتون بسرعة، ولكنهم لا يقومون بتطهير مـــنزل المصاب فقط وإنما يحرقون أيضا كل ما يملك، وكل ما تملـــك أســـرته. وبذا يفقد هؤلاء القليل، الذى هو كل ما يملكون، ولا يعوضـــــون عنـــه برغم وعود الحكومة المتكررة. فكانت هذه الوعود الكاذبة تدفع أهـــالى المصاب إلى إخفائه فى البئر قبل وصول رجال الصحة. وبعد ذهابـــهم يقومون باخراجه ثم دفنه. ثم يقبل أهل القرية – دون وعـــى – علـــى استعمال ماء البئر لقضاء حاجتهم اليومية.

أرمنت : أيام وليال لا تنسى

فى صيف عام ١٩٤٨ قمنا بقضاء بعض شهور العطلة فى سويسرا. وبالرغم من أن رحلة الطائرة من القاهرة الى جنيف استغرقت وقتاً أقصر من رحلتنا بالسفينة فى ربيع عام ١٩٤٦ إلا أن ذلك كان يعنى لأبى مجدداً بذل مجهود كبير حتى يستوفى كل التأشيرات المطلوبة.

قد كان يحدث - احيانا - أن يدور على المكاتب المختلفة عدة أيام من أجل ختم واحد على جواز السفر، وهنا وهناك كان يقابل باستهتار من بعض الموظفين. أو كانوا يرسلونه الى موظف آخر غير مختص، أو آخر متغيب فى أجازة، أو غير موجود على الأطلاق.

وكانت عدم مسؤلية هؤلاء الموظفين لا تعنى لأبى ضياع الوقت فحسب وانما كانت تسبب له إحباطاً كبيراً.

وقد كان لنا صديق يحب شرب (الكحول) أحياناً، فاراد ذات مرة إستغلال روح الغفلة والاهمال لدى بعض هؤلاء الموظفين واستطاع من خلال ذلك العبور بزجاجة خمر غالية الثمن دون أن يدفع جمركاً عليها. فقد قام فى أحد محلات بيع الادوية فى بازل بملء زجاجة طبية بمشروب الكريز وكانت الزجاجة تحمل ملصقاً يقول :

" deux cuillevees a soupe trois fois par joor" أى ملعقتان كبيرتان ثلاث مرات كل يوم. وعندما وصل صاحبنا الى الاسكندرية نظر موظف الجمرك نظرة متسائلة الى الزجاجة المربعة،

فرسم صديقنا على وجهة علامات الشكوى وأكد للموظف أنه يعانى من الام فظيعة فى المعدة وقد نصحة الطبيب المعالج فى سويسرا باستخدام هذا الدواء. وهنا تمنى له موظف الجمرك الصحة، والشفاء.

كانت هناك دوافع كثيرة جعلت أبى يفكر فى العـودة النهائيـة الـى سويسرا فى نهاية الأربعينات. فقد تجاوز الخمسين من عمـره، وكـان يفكر فى أن يستمر بعملة لعشرة أو خمسة عشر أعوام أخرى.

ولما كان علينا أن نكمل دراستنا فى سويسرا فقد واجه أبى إحتمالين إما ان يقدم على المغامرة ويؤسس عيادة جديدة فى بازل او يبقى فـى مصر لمدة ١٥ عاما أخرى، نعيش نحن أثناءها فى سويسرا بعيداً عـن والدينا، بالاضافة الى أن السفر بالطيارة سيكون أمـراً مكلفـا إذا أراد والدينا زيارتنا فى سويسرا كل عام. وفوق ذلك كانت سـماء السياسـة المصرية قد بدأت تتلبد بالغيوم. وهكذا قرر والداى كارهين العودة الـى سويسرا بصورة نهائية فى صيف عام ١٩٥٠ ولكن قبل ذلك قام أحـد مرضى والدىبدعوتنا لقضاء أعياد الميلاد ورأس السـنه فـى أرمنـت بصعيد مصر، حيث كان أبوه مديراً لأحد مصانع السكر.

كانت رحلة القطار– خلال الدلتا حتى القاهرة ثم الى جنوب الوادى – طريفة ومسلية بالرغم من طولها. إلا إننا كنا سعداء عندما وصلنا فى النهاية فى المساء الى أرمنت الواقعة على بعد ٢٠ كيلوا متراً جنـوب الاقصر. حيث احتفلت بنا عائلة مضيفا إحتفاء كبيرا.

كان مضيفا يسكن فيلا ضخمة تقع وسط بستان رائع به حمام سباحة كبير والذى كان يعتبر رفاهية كبيرة حينذاك. إما قمة الإسراف التى رأينها فى أرمنت فكان التجهيز لرأس السنه. حيث تم بناء مسرح للرقص على حمام السباحة الكبير، بينما غطى الجزء الآخر تماماً بأوراق الورد.

كانت الأيام التى قضيناها فى أرمنت مليئة بالزيارات، فكنا كل يوم تقريباً نقوم بزيارة أحد المواقع الاثرية، وقد تولدت فى نفوسنا إنطباعات عظيمة عندما كنا نمر أمام النقوش المزينة لجدران معبدى الاقصر والكرنك، حيث كان وقع أقدامنا أو صيحة طائر تمثل إزعاجاً للهدوء التام الذى يسود المكان.

وفى طيبة (الاقصر) كنا نتعجب من ضخامة التماثيل الأثرية، أما أنا فكنت أجد سعادة فى جلوسى على قدمى أحد تمثالى " ممنون" وكان من الطبيعى أن نزور أيضاً مصنع السكر، حيث كان ٣٢٠٠ عامل يشتغلون ليل نهار، ليحولوا سته آلاف طن من القصب إلى ستمائة طن من السكر.

وكان من الممتع بعد ذلك أن أقفز من فوق المنط الى الماء البارد فى حمام السباحة، أو أسير فى الحديقة فى ظل نخيل البلح السامق، أو بجوار أحواض الزهور الملونة. وفى المساء كنا نذهب إلى النيل ونتعجب من اختلاف الالوان للشمس الغاربة. وكان أبى يأسف دائما لعدم إستطاعته

تسجيل هذه الالوان من خلال آلة التصوير. فالافلام الملونه لم تكـــن قد عرفت بعد فى مصر للآسف.

وسرعان ما انقضت هذه الرحلة الخيالية، وسرعان ما حان موعـــد فراق مضيفينا الأحباب، وكذلك من بلد الفراعنة كلها.

وكان ينتظرنى وقت عصيب. فقبل بداية أخر عطلة صيفية لى فـــى الاسكندرية كان على ان أنجح فى امتحـــان مدرســـة " كـــامبردج أنـــد أوكسفورد"، وهو الامتحان النهائى لى كتلميذة بمدرسة "إنجليش جيرلز كولدج" ولقد وفقت فى ذلك بالفعل.

وكانت شهور الصيف كعادتها دائما حارة جداً. ولما كان الجو لطيفا أحياناً على شاطئ البحر، كنا نمضى إلى الميناء الغربـــى حيـــث كـــان المركب الشراعى "موش" المملوك للنادى السويسرى الـــذى كـــان لـــه شاطئ خاص فى هذه المنطقة.

وكنا نسعد دائما بوجود من يستطيع قيادة هـــذا القـــارب الشراعـــى ليأخذنا معه فى نزهة بالميناء.

وكنا غالبا ما نمر أثناء ذلك باليخت الملكى " المحروسة" حيث كـــان البخار يتصاعد دائما من مدخنته.

وكان الناس فى النادى السويسرى يقولون أن اليخت يقف على أهبة الاستعداد للابحار فى أيه لحظة بالليل أو النهار يحمل الملك فاروق الى خارج البلاد إذا شاء هو ذلك، أو أرغمه أخرون. وهو ما حدث بعد ذلك، فبعد وقوع الانقلاب طلب محمد نجيب وجمال عبد الناصر مـــن الملـــك فاروق فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ مغادرة البلاد عن طريق البحر فى خـــلال ١٢ ساعة.

أما رحلتنا البحرية – طبقا لمشئيتنا الحرة – فقد بـــدأت قبـــل ذلـــك بسنتين. ففى ٣ ستمبر ١٩٥٠ صعدنا – بأســـى – ظـــهر الســـفينة "

زغرب" التى كانت ستقلنا مع ١٠ سافرين آخرين إلى فينسيا وكنا قد قمنا بتسليم معظم أثاث منزلنا- بما فى ذلك البيانو الخاص بى - إلى شركة نقل معروفة لتنقله الى سويسرا. وقد قامت الشركة بوضع كل الأثاث فى صندوق واحد فقط يبلغ حجمه ٢١ متراً مكعباً.

أما باقى الاثاث فقد قمنا ببيعه فى المزاد.

يقول أهل مصر من يشرب ماء النيل يعود اليه ثانية.

وفى حقيبة يدى الحمراء الصغيرة حملت صندوقاً صغيراً به رمل ناعم من شاطئ سيدى بشر، هذا الشاطئ الذى كدت لا أتعرف عليه، عندما نظرت اليه من حجرتى بالفندق بعد ٤٠ عاماً، عندما قمت بزيارة مصر فى ١٩٨٧.

الـدخـول فى عالم الكبار

كم كان حزنى عميقاً عندما تركنا الاسكندرية عـام ١٩٥٠. ذهبنـا لنعيش فى سويسرة فى مدينة بازل التى تقع على نـهر الرايـن عنـد المنطقة التى تلتقى فيها حدود المالنيا وفرنسا مع حدود سويسرة، وفى بازل استأنف أبى عمله كطبيب.

لم يكن من السهل ان أتأقلم مع الظروف الجديدة وخاصة فى الشتاء السويسرى حيث لا نستمع بالشمس الساطعة سوى أسبوع واحد. فطوال الشتاء لا أرى سوى سماء تحجبها الغيوم وجذوع الأشجار السوداء فى حديقتنا التى يغطيها الجليد. وهكذا كنت افتقد شمـس مصـر السـاطعة والدافئة، والبحر الأزرق العميق فى سيدى بشـر، والألـوان المتعـددة والجميلة لمختلف النباتات والزهور.

وذات صيف عندما كنت أمضى العطلة فوق جبال سويسرة، قـابلت الرجل الذى تزوجته. توماس هارتمان. كان ضابطاً نظامياً فى الجيـش البريطانى وبارعاً فى رياضة تسلق الجبال.

بعد أربع سنوات فى كلية التجارة وبفضل التعليـم الممتـاز الـذى تلقيته فى كلية البنات الانجليزية بالاسكندرية، أستطعت الحصول علـى عمل كسكرتيرة فى كل من لندن وباريس.

تزوجنا فى ربيع ١٩٥٦ . وإذ أرسل توماس ضمن قوات الحلفـاء الى المانيا المحتلة فقد بدأنا حياتنا الزوجية فى " جوتنجن" وهى مدينـة جامعية قديمة وساحرة. وبعد سنه رزقنا بأول أبنائنـا "جـوى" وبعـد سنتين، وكنا وقتها فى برلين، رزقنا بابنتنا كرستين.

أصبح زوجى يخدم ضمن القوات البريطانية فيما وراء البحار، وهكذا كنا سعداء بأن نذهب الى جزيرة جمايكا فى الكـاريبى. وهنـاك رزقنـا بالابن الثانى "إريك". وعدنا الى اوربا بعد استقلال جمايكا بوقت قصير .

ورُقى توماس الى رتبه ميجور وكان سعيداً حين أرسل ليخدم مرة ثانية فى المانيا، فى القطاع البريطانى من برلين. على أى حال فقــــد وقـــع أثناء إقامتنا فى جامايكا ذلك الحدث الدرامى إذ تم شطر المدينة الجميلة الى مدينين، برلين الشرقية وبرلين الغربيةوأقيم حائط برلين.

ومع مرور الزمن لم تكن الامور تسير ســـيراً حســناً فـــى حياتنـــا الزوجية. بعد برلين أرسل توماس الى أيرلنده الشمالية لمدة شــــهرين. و هناك انتهى زواجنا الذى بدء بداية سعيدة، انتهى بالطلاق.

بعد الطلاق عدت الى سويسره مع أولادى الثلاثة – ولــدان وبنـــت. والتحقت ثانية بأحد أعمال السكرتارية. وبعد سنتين قابلت رجلاً سحرنى بجاذبيته، إنه فالتى الذى عشت معه سنوات جميلة, وإذ كنـــت شغوفـــة لآن "أقدمه" الى البلد الذى ولدت فيه، أعنى مصر، فقد سافرنا سوياً الى الاسكندرية فى خريف عام ١٩٨٧، وصار فـــى إمكـــانى أن أرى مـــرة أخرى مدينتى الحبيبة:" الاسكندرية" اسكندرية زمان".

العـــــودة

كان السفر للتعرف على بلاد وشعوب أخرى بمثابة متعة لـــى منـذ زمن بعيد.

ولذا لم يكن مستغرباً أن أرحل من حين لآخر حين تسمح لى ظروفى المادية والعملية بذلك.

ومن الطبيعى ألا تطول إقامتى بالخارج - كما كنت أفعل فى الماضى لآنى لم أعد استطيع القيام بذلك سوى أثناء الاجازات.

وأثناء بعض رحلاتى مع " فالتى" عشت لحظات لا تنسى : مثل فشلى فى السباحة فى مياه البحر الميت المالحة جداً، والتـــى تنخفــض عــن مستوى البحر بحوالى ٤٠٠ متر، وإجتياز خليج ضيق بيـــن الصخـــور للوصول الى مدينة بترا العريقة بواجهاتـــها العظيمـــة المنحوتـــه فـــى الصخر، والتى أنشأها النبطيون أحد الشعوب العربية التى كانت تســكن الصحراء قبل الف عام.

وفى رحلة بالباخرة قمت أنا و "فالتى" بزيارة وطنى القديم بعد مرور ٣٧ عاماً. وقد أخبرنى بعض معارفى أن الاسكندرية قد تغـــيرت تمامـــاً عما كانت عليه عندما غادرتها فى أحد أيام شهر سبتمبر الدافئة فى عام ١٩٥٠.

لم أصدق عينى عندما وصلنا الميناء، إن المدينة قد تخلت عـــن ثوبـــها الجميل، وصار كل شئ رمادياً كالحاً، والسماء ملبدة بالغيوم، أما مبانى الميناء فكدت لا أتبينها وسط بخار الماء.

وكانت بقع زيت تسبح فوق مياه الميناء الداكنه. ولما كنا قد وصلنا يوم جمعة فى شهر رمضان فإنه لم يوجد أناس كثيرون فى الميناء فلقد ذهب معظمهم للصلاة بالجامع.

وكانت هناك سيارات عديدة تنتظرنا على رصيف الميناء لتحملنا الى القاهرة.

بكيت بداخلى عندما مر "الأتوبيس" الذى يحملنا بميدان وسط المدينة الخالى من الناس، والذى صار اسمه (ميدان التحرير) والذى لم يترك فى نفسى أى انطباع .

وصار الريح يطيخ بجرائد قديمة وعلب كوكاكولا فارغة ونفايات أخرى ولم يكن هناك سوى بعض الاشجار الجافة الشعثاء تعطى المكان مسحة خضراء.

لم أدر فى أى مكان نحن الا عندما رأيت التمثال البديع لمحمد على، فوق حصانه فتذكرت إنه ميدان محمد على القديم[1] ثم تذكرت أنى جلست مع أمى الى هذا المكان مرات عديدة، وقد أكتشفت بأحد الشوارع الجانبية الصاخبة محلا يبيع عصير البرتقال كان ألذ عصير برتقال ذقته فى حياتى. ومازلت أرى الزجاجة أمامى وعليها ملصق أخضر يحمل رأس ملكة فرعونية بتاج ذهبى.

---

[1] – المعروف باسم ميدان المنشية . وأغلب الظن أنها مرت بالميدان وقت الإفطار فى رمضان.

لقد تغير كل شئ كان هناك في الماضى باعة جـــائلون وماســحو الاحذية، وصبية يبحثون عن اعقاب الساجائر، كما كـــان هنـــاك أيضـــاً رجال بملابس أنيقة، تم كيها بعناية يمشــــون بخيــلاء وعلـــى رؤوس بعضهم الطرابيش الحمراء. بينما كانت سيدات أنيقات من كل الأعمـــار يمشين أمام بورصة القطن عصب الاسكندرية التجارى وقد ارتدين ثياباً على أحدث صيحة – مصنوعة من القطن أو الحرير وفوق رؤوســــهن القبعات المناسبة لملابسهن.

وكم كنت – أنا وأمى نحب السير بجوار الأحواض الخضراء المليئة بزهور "الغاب" الحمراء والصفراء لنشاهد المحـــلات الانيقـــة المبـــانى الفخمة.

والأن، فى مايو عام ١٩٨٧، كانت معظـــم هـــذه المبـــانى مـــازالت موجودة، ولكنها لم تعرف للطلاء سبيلاً منذ أكثر من ثلاثين عاماً. بـــل كان هناك فوق أسطح المنازل غابة من هوائيـــات التليفزيـــون. ومـــن النوافذ تدلت الملابس وملاءات السرير. وكانت نوافذ بعض المنازل قـــد خرجت عن إطاراتها اما تلك المعروفة باسم " شيش حصير" فقد علقت " منحرفة" فى الهواء.

أما الذى استرعى إنتباهى بشدة فكانت لوحات الأسماء المعلقة على المنازل والمحلات، وقد حملت كلها أسماء مكتوبة باللغة العربية. ولـــم أعثر فى أى مكان على إعلان باللغة الانجليزية او الفرنسية، كما اننى لم أر أوروبياً واحداً فادركت اننى الان فى مدينة عربية قحة، أقتربت فى سنوتها الأخيرة من مدينة القاهرة ذات الطابع الشرقى.

وفى طريقنا الى القاهرة مررنا ببحيرة مريوط حيث وقف هناك بعض الصبية على شاطئها واخذاوا يصطادون.

وعلى الطريق الصحراوى - الذى صار الان طريقاً سريعا متسعاً لاحظت باندهاش أن أجزاء شاسعة من الصحراء تم إستصلاحها بعد أن وصلتها المياه.

لقد بلغت دهشتى أوجها وأنا أمر على حقول لا نهاية لها مزروعة بالبرسم وأشجار الفاكهة والعنب. بعد أن كنا فى الماضى تتسلى أثناء هذا الطريق بعد أعمدة التلجراف أو براميل البترول الفارغة.

وعندما أقتربنا من القاهرة اخذت ملامح الأهرامات تبدو فى الافق البعيد.

وشيئاً فشيئاً بدات ملامحها الحقيقية تتضح حتى صرنا على بعد ١٠٠ متر من هذه الأهرامات العظيمة.

فى الماضى، أى قبل أربعين سنه من الآن، عندما رأيت الأهرامات لأول مرة، أحسست بسطوتها وجلالها، أما الأن وبعد أن اقترب العمران من سطوحها، اشعر أنها فقدت شيئاً من سحرها وسموها.

وكان تزاحم السائحين شديداً أمام هذه الاثار الفريدة.

أما فالتى فقد كان يتفهم إختلاط مشاعرى، بل كان يجد ذلك مسلياً ولم يغضب عندما صاح به صبى بكلمة سويسرية دارجة بعد أن الحظ فوراً أننا سويسريان.

وقد تطلب منا، إبعاد الصبى اللحوح، جهداً عظيماً، لانه كان ينتظر بالطبع – مكافأة على موهبته اللغوية وسرعان ما شعرنا اننا وقعنا فى "عش دبابير" فكلما أمعنا فى إبعاده عنا، كلما أقبل علينا آخرون مثله.

وعندما فاض بى الكيل صرخت فيهم فجأة " أنا أكلم عربى"، فتفرقوا وكأن أصابتهم صاعقة، وقد اعتقدوا انه ليس هناك طائل من الالحاح على إنسان يستطيع التحدث بالعربية.

وفى الطريق الرئيسى، الذى يربط الجيزة بوسط القاهرة، رأيت مالم يسكن بحسبانى :الفيلات الفخمة بحدائقها الفخمة حلت محلها عمارات غير منتظمة.

أما الفيلات المتبقية التى عاصرت زمناً أفضل، فكانت تبدو مختفية تحت وطأة حصار العمارات السكنية العالية.

وكنا كلما اقتربنا من وسط المدينة كلما ازاداد زحام الناس والسيارات والمبانى. وتعجبت عندما رأيت فى الطريق أعداد هائلة من التاكسى تزمر فى وسط سحابة من العادم وأتوبيسات سفر مكيفة، وموتوسيكلات مسرعة، واتوبيسات ركاب قديمة ومليئة بالناس، وبين

كل هذا رجل يحاول العودة بجماله سالمة، بينما فى الطريـــق المضـــاد تسرع سيارات تويوتا ومرسيدس من أحدث طراز.

بعد زيارتنا للمتحف المصرى وانتهاءنا من طعام الغداء حان الوقت للعودة للاتوبيس مرة أخرى، ليحملنا الى بورسعيد حيث كـــانت ترســو سفينتنا.

ويعود الفضل لبناء هذه المدينة الى شق قناة السويس. ومـــن هـــذا الطريق الطويل لم يعلق بذهنى سوى حادثة واحدة : فبعد أن تجاوزنـــا ضواحى القاهرة، وصلنا الصحراء. فرأيت تلال الرمل النـــاعم تصـــل الأرض بالسماء، وكان ذلك يثرى المنظر الطبيعى للصحراء.

إلا أن هذه الصورة تكررت كثيراً فيما بعد، ولم يعد هناك سوى رمل على مدى البصر.

وفجأة لحظت وقوف سيارة صغيرة على بعد أمتار قليلة من الطريق، فظننت أن المسكين سئ الحظ قد تعرض لحادث فى هذا المكان المقفـــر. إلا أن شعورى بالأسف تجاهه سرعان ما تحول الى شعـــور بـــالخشوع عندما رأيت الرجل قد وضع سجادة صغيرة وخر ساجداً يصلى.

وبعد ذلك بامتار قليلة رأيت رجلاً أخر جالساً على جانب الطريق وقد اشعل ناراً ووضع فوقها إناء قديماً فخمنا ، انه يسوى وجبة من الفـــول فقد كنا فى رمضان وكانت الشمس قد غربت، والرجل لم يكن قـــد ذاق الطعام منذ الفجر.

كليوباترا

فى نوفمبر عام ١٩٩١ قمت مجدداً – أنا وفالتى – بزيارة مسقط رأسى – أعنى الإسكندرية . وكانت رحلتنا هذه المرة مع مجموعة من الذين ولدوا فى مصر أو عاشوا فيها سنوات عديدة.

وكان الهدف الرئيسى لرحلتى هو الاقامة لمدة يومين فى الاسكندرية، التى قمت بزيارتها زيارة خاطفة عند عودتى الأولى لمصر قبل أربع سنوات.(١٩٨٧) وبعد رحلة طيران رائعة فوق جبال الألب المغطاة بالجليد وصلنا القاهرة فى ساعة متأخرة من الليل حتى اننا قضينا الليل هناك قبل أن نسافر فى الصباح الى أسوان.

بعد إنهاء إجراءات الدخول نقلنا اتوبيس الى فندق شبرد بالقاهرة والذى كان قد دُمر تماماً أثناء الاضطرابات السياسية عام ١٩٥٢ [١] وأعيد بناؤه عام ١٩٥٧.

---

[١] – تقصد حريق القاهرة (المترجم)

وقد سعدت بالمبيت هناك، فقد كان فندق شبرد القديم والفخم في وسط المدينة يعتبر حتى منتصف الخمسينات الفندق الأول بالمدينة، إذا إستثنينا فندق ميناهاوس بالهرم.

وفى سنوات ماضية، أيام الأحتلال الإنجليزى، عندما كان المرء ينزل هذا الفندق محاطاً بالخدم، وعندما كان الناس لا يعرفون معنى "المجموعات السياحية"، كان لهذا الفندق مجد، كالذى لفندق "راملية" بسنغافورة، الذى أقام فيه الكاتب الانجليزى سومرت موم عدة مرات.

فقد كان القوم فى شبرد القديم يرتدون أحدث الازياء، ليجلسوا في شرفته الواسعه. وكانت مواعيد الغرام تضرب هناك لسماع الموسيقى.

وأثناء سنوات الحرب (العالمية الثانية) حل اللون "الكاكى" محل الألوان المختلفة الزاهيةن وصار المرء غالبا ما يصادف ضباطاً انجليز ذوى رتب عاليه، وأحياناً أشخاصاً مريبين، كانوا يتجسسون لحساب الألمان او الحلفاء.

أما فى نوفمبر(١٩٩١) فقد اختفت الهالة التى كانت تحيط بفندق . شبرد. إلا أن بعض الغرف هناك كانت مجهزة بأثاث شرقى وسجاد فخم. وفى صالة الطعام الكبيرة، علق على أحد الجدارن مشربية ثمينة، كتذكار فقط،وكان ينقصها عبق الماضى للفندق القديم العظيم. و عندما ما دخلنا غرفة نومنا بالدور الرابع أصبت بصدمة كبيرة لحد ما. فقد كانت نافذتنا تطل على مسقط معتم،تكوم فيه أثاث قديم، أما النافذة

الأخرى فكانت تطل على فندق حديث[1] فإذا مددت النظر بعيداً رأيت بالكاد جزاءاً صغيراً من النيل.

وكانت الغرفة مجهزة بأثاث ضخم داكن، وفى الحمام كان خيط ماء رفيع، بنى اللون، ينساب فى الحوض.

وكانت رائحة "الفليت" تفوح من غرفة النوم.

وقد ذكرتنى هذه الرائحة" بأنبوبة الفليت" التى كنا نستخدمها فى الماضى لقتل الحشرات.

وبالرغم من أن أمى كانت تنظر الى موضوع النظافة بحساسية، فكانت تغسل الموالح والطماطم بالماء والصابون، قبل استعمالها، بينما كانت "تنقع" العنب والسلاطة فى البرمنجنات قبل أن تضعها علىالمائدة، وبالرغم من ذلك كانت هناك أيضاً "انبوبة الفليت" جاهزة دائماً للاستعمال.

ببعض العبارات العربية القاسية أخذت أصيح فى وجه المدير المندهش، الذى أمر لنا فى نهاية الأمر بغرفة واسعة، مشمسة، فى الطابق السابع.

---

[1] – فندق سميراميس

كان المنظر الذى تطل علية الغرفة يتسق مع هذه الغرفة الجيدة التهوية، ذات الاثاث الامبراطورى الرفيع، فعوضنا ذلك عن خيبة أملنا فى الغرفة الاخرى.

فى صباح اليوم التالى أقلتنا الطائرة فى اتجاه صعيد مصر وبعد ساعتين وصلنا أسوان، ذات الهواء المنعش، حيث سنقضى هناك يومين.

وكما حدث أثناء زيارتى للأهرامات قبل أربع سنوات كان على ان أبذل قصارى جهدى لأ تعود على مجموعات السياح الكبيرة التى صارت تغشى المعابد والمقابر الاثرية مثل أسراب النحل. كما دهشت أيضاً لحركة البواخر السياحية النشيطة للغاية وحركة القوارب المزينة بالبردى والتى تمخر عباب النيل الذى تم ترويضه[1] .فى الماضى لم يكن هناك سوى المراكب التى كانت تتهادى، دون صوت على صفحة النيل وهى تنقل بالات القطن أو قصب السكر أو مواد البناء، وأحيانا كانت تظهر باخرة سياحية على ظهرها بعض السائحين وقد أخذوا يلوحون بأيديهم.

أما الأن فقد ارتفع هدير محركات البواخر من كل طراز وعلا صوت السائحين وهم يساومون أصحاب القوارب للوصول إلى سعر مناسب ثمناً لنقلهم الى المواقع الاثرية الفرعونية الشهيرة.

فوق جزيرة الفنتين – التى نصل اليها بمعدية – كان فندقنا، ومن خلال شرفة غرفتنا بالفندق كنا نستطيع أن نرى مشهداً رائعاً، حيث

---

[1] – تقصد بعد بناء السد العالى.

يرتفع هناك على شاطئ النيل الغربى تل من الحجر الرملى حيث سطعت الشمس على قمته - المكللة بمقبرة - فجعلتها تلمع كالذهب. وأمام هذه الخلفية الرملية الملونة ارتفعت أشجـــار الكـــافور والنخيـــل بألوانـــها الخضراء الفاتحة والداكنه،وقد أخذت تهتز فى الهواء.

كان هناك هدوء ساحر ذكرنى بالماضى عندما جئـــت الـــى جزيـــرة الفنتين فى صحبة والدى وأخى.

وأمام جزيرة الفنتين تقع جزيرة أخرى أقل حجماً منها، وقـــد نمـــت فوقها أشجار الاوليااندر الوردية، البنفسجية، وأشجار الرمـــان وزهـــور نادرة أخرى، وقد لفت والدى نظرنا حينذاك إلى الأنواع المختلفة للنخيل والتى قام بزراعتها حينذاك الفليد مارشال الانجليزى لورد كيتشنر.

وبعد جولتنا فى حديقة النباتات قام والداى بتاجير فلوكة حملتنا الى الجهة الآخرى من جزيرة الفنتينن لأن اخى أصر على رؤيـــة مقيـــاس النيل، الذى يرجع تاريخ بنائه إلى الف سنه.

ومازلت أذكر جيداً هذه الرحلة النيلية وسط السكينة ونسمة هـــواء رقيقة تدفع قاربنا ليتهادى - دون صوت - فوق صفحة النيل، الذى لفه هدوء عجيب، لا يقلقه من حين لآخر سوى طقطقة يصدرهـــا مجـــداف الفلوكة القديم، أو صيحات تنبعث من طيور"أبى منجل" البيضـــاء وهـــى تتزاحم فوق قمم الأشجار لتجد لنفسها مكاناً على النيل.

وكم كنت أود مد يدى لأ ترك مياه النيل تنساب فوق أصابعى ولكنى كنت أمسك عن ذلك بتحذير قاطع من أبى إذ يمكن أن أصاب بســـهولة

بمرض الدوستناريا.(ولذلك كنت أدهش لرؤية بعض الناس فى مصر الذين يعرضون انفسهم باستخفاف ودون داع لهذه المخاطر) .

وفى رحلتنا هذه مررنا بمجموعات عديدة من صخور الجرانيت المكورة التى كانت – بسطوحها الملساء أو الخشنة – تذكرنى بأفيال تستحم. فهل هذا هو سبب تسمية الجزيرتباسم "الفنتين" أو أنه كان يتم هناك – فى العصور القديمة – تجميع الافيال ثم ينعقد بعد ذلك سوق كبير لبيعها، من يدرى[1] ؟ بعد زيارتنا القصيرة لجزيرة "الفنتين" إنتقلنا الى مرسى نيلى فى أسوان حيث كانت تنتظرنا الباخرة "سيتى الثانى" التى كانت محجوزة لمجموعتنا فقط، والتى أبحرت – شمالاً – فى النيل وهى ترفع على مقدمتها – لأول مرة – علماً سويسرا وقد حملتنا هذه الباخرة الحديثة لعدة أيام تاليه الى مواقع اثرية مختلفة فى صعيد مصر. وفيما عدا معبد "حورس" فى أدفو والمعبد المزدوج فى كوم أمبو، كنت مازلت اتذكر جيداً هذه المواقع الاثرية التى قمت بزيارتها قبل ذلك. وفى نهاية رحلتنا النيلية التى انتهت فى الاقصر، غادرنا باخرة سيتى الثانى وتوجهنا الى المطار.

وبعد ساعة من الطيران نظرت من نافذة الطائرة فرأيت بيوت ضواحى القاهرة. ولما كنت أنا وفالتى لا نريد الذهاب الى الأهرامات ثانية، قمنا باستئجار "تاكسى" لنزور بعض مناطق القاهرة، التى لم نكن نعرفها جيداً.

---

[1] – المؤلفة تخلط بين إسم الجزيرة "الفنتين" وكلمة Elephantالانجليزية.

فى جزيرة الروضة ذهبنا الى قصر المنيل، الذى بنى للأمير الـــثرى محمد على، إبن الخديوى توفيق وقد تحول القصر الى متحـــف، وفتـــح للجمهور عام ١٩٥٥ وهو محاط ببستان كبير من أشجار مختلفة يبلغ عمرها مائه سنه، وكان لدى جدنا "ياقوت" بعض منها.

والقصر من الداخل كان يترك فى نفوس الزوار أنطباعاً أعظم مـــن مظهرة الخارجى.

وبالرغم من مجاروة المتحف لنادى "مديترانية"[١] إلا أننـــا اندهشنـــا كثيرا فى ذلك الصباح، لعدم وجود زوار غيرنا.

وفيما عدا فيلا "جميل بك" فى " قها " فقد كانت هذه هى المرة الاولى فى حياتى التى اتيح لى فيها مشاهدة عمارة مصرية وشرقيةبهذا الثراء الذى ليس له حدود. كان هناك فى المدخل مباشرة نموذج لجامع، تجاوز ارتفاعه المتر، صنع بدقة بالغة من خشب داكن اللون وطعـــم بالعـــاج والصدف.

ثم صعدنا الى غرفة كانت معتمة قليلاً، ولكنها لطيفة، نوافذها مـــن الزجاج المعشق والملون لا ينفذ منها سوى شعاع ضئيل من الضـــوء فتحجب بذلك حرارة الصيف القائظ.

---

[١] – شركة سياحية فرنسية.

هناك اثنتان من الأرائك المنخفضة، أمتدتا بطول جدارين من جدارن الغرفة ووضعت أمامها عدة مناضد صغيرة، كانت كـــل منـــها مطعمـــة بالصدف.

وفى الحجرات المجاورة لم نفتن بالاثاث بقدر ما سحرنا بالقاشـــانى الأبيض والازرق والاحمر، الذى كسيت به الجدارن. وعندما أقتربنا أكثر لا حظنا وجود أماكن حميمة بها أرائك وثيرة ووسائد حريرية.

وكانت أسقف الحجرات مزدانه بخشب الخرط.

وفى الفيترينات راينا مجموعة أوانى نفيسة من الخزف، من بينـــها عدة أكواب وفازات صنعت من قرون وحيد "القرن" كما أكد لنا المرشد.

وفى النهاية قمنا بزيارة متحف الصيد الموجود أيضاً بالمتحف نفسه وزرنا كذلك قاعة الصلاة بالمسجد الصغير، والتى كانت تبرق كالذهب.

بعد ذلك ذهبنا "بالتاكسى" الى المقابر الواقعة جنوبى القلعـــة حيـــث زرنا بعض مقابر المماليك القديمة.

أما زيارتنا الأخيرة فكانت " لبيت السحيمى" بقاهرة المعز، الذى يعود تاريخ انشائه إلى القرن السابع عشر الميلادى، فســرنا – مـــع ســـائق التاكسى على أقدامنا مخترقين حارات ضيقة ومتعرجة حتى وصلنا فـــى النهاية الى هدفنا الذى استحق منا هذا الجهد. فلم تكن المشربيات تغطى فقط واجهة البيت، ذى الطوابق الثلاثة، وإنما ايضا اجزاء من الفنـــاء الداخلى.

لم يكن أثاث الحجرات بنفس ثراء مثيلاتـــها بقصـــر المنيـــل الا أن القاشانى الازرق على الجدران، والمقاعد المصنوعة من خشب الخـــرط وصحاف الخزف كانت أعرق بكثير .

وهكذا أشرفت رحلتنا على النهاية، ولم يبق أمامنا ســـوى يوميـــن لزيارة الأسكندرية، تلك المدينة التى كانت "كليوباترا" تفضل الاســـتحمام فى مياهها.

وبدلاً من الطريق الزراعى القصـــير خـــلال شعـــاب الدلتـــا ســـلك سائق"الأتوبيس السياحى" – هذه المرة أيضا – الطريق الصحراوى. مما أتاح لنا أن نقوم بزيارة خاطفة لواحد من الأديرة الأربعة التى يسكنها رهبان الاقباط بصحراء وادى النطرون، حيـــث يتـــم اســـتخراج الملـــح والنطرون فى الصيف ولدرء هجمات قبائل البدو فى الماضى فقد اعيـــد بناء تلك القلايات والأديرة – بقبابها الغريبة – علـــى شكـــل حصـــون بجدران عالية فى القرن التاسع الميلادى.

وقد سمح لنا بصفة استثنائية – زيارة دير القديس أبشوى الواقـــع فى منتصف الطريق بين القاهرة والاسكندرية.

عندما عبرنا البوابة اعترتنا دهشة عظيمة عندما رأينا هنـــا – فـــى وسط الصحراء – هذه المزارع الخضراء.

نخيل بلح سامق يرتفع فوق شجر الموز الكثير والقصير، وكذلك شجرة زهرة الجنه التى لم نر في هذا الوقت من السنه براعمها الحمراء.وبجوارها أشجار الأوليادر الحمراء وشجيرات ببراعم صفراء. وكانت هناك سقيفة ظليلة مغطاة بالكرم.

وفى الطرف الاخر من حديقة الدير كانت هناك أحواض عديدة مزروعة بالخضار.

أما فى داخل كنيسة الدير فلم يوجد الكثيرن، إلا أننىأعجبت بلوحات خشبية رسمت عليها مشاهد من الانجيل وصور لرهبان قدامى، كما كتب عليها باللغة القبطية. غادرنا وادى النطرون لنصل فىالنهاية الى بحيرة مريوط فوجئت هناك بأشباح ناطحات سحاب حديثة وكثيرة.

,اختزنا طريق الكورنيش الذى صار الان مزدحماً لنصل الى الطرف الأخر من المدينة، حيث فندق "رمادا رينسانس" فى سيدى بشر

عندما نظرت من شرفة حجرتنا بالفندق لم أعرف موقعنا على أى من الشواطئ الثلاثة لسيدى بشر، فقد تغير كل شئ.

أما العمارات العالية الممتدة شرقاً بطول الكورنيش والتى تصل تقريباً حتى قصر الملك السابق، كانت - لوحدها- كفيلة بالقضاء على صورة شاطئ سيدى بشر -٣ التى كنت احتفظ بها فى ذاكراتى.

من المحتمل أن يكون بناء السد العالى قد أثر على منسوب البحـــر حتى أن شكل الشاطئ القديم لم يعد متطابقــاً مـــع المنســوب الجديــد. وبالرغم من ذلك صرت أبحث عن نقطه ارتكاز دون جدوى.

وعندما سألت موظفى الاستقبال عن رقم الشاطى من شواطئ سيدى بشر الثلاثة – الذى أقيم عليه الفندق إذا بهم يقولون بأنهم لم يســـمعوا عن شئ من هذا القبيل.

فى صباح اليوم التالى قمنا بجولة معرفية بالمدينـــة بقيــادة أحــد اعضاء مجموعتنا، الذى كان قد زار الاسكندريةعدة مرات فى السنوات الاخيرة.

وذهبنا الى طرف لسان الميناء الشرقى حيث زرنا قلعة قايتباى. ثــم قمنا بزيارة سريعة لعمــــود الســــوارىوبعدها شربنــا القــهوة بمحــل "باسترودوس"، الذى كدت لا اتعرف عليه فأين هؤلاء السيدات والرجال بملابسهم الأنيقة الذين كانوا يترددون علىهــــذا المكــان، ويخرجــون حاملين التورتة الرائعة والشوكولاته المحشوة فى علب مزدانه بربــــاط ذهبى.

على النقيض من السائحين الأخرين لم نهتم نحن كثـــيراً بـــالمواقع الأثرية بالمدينة – وهى قليلة على كل حال – فقد إنصب إهتمامنا علـــى زيارة تلك الأماكن التى ارتبطت بطفولتنا وشبابنا فكنا مشتاقين للغايـــة لزيارة "الشاطبئ" حيث استطعنا بتصريح خاص رؤية مدرستنا القديمـــة Ecole suisse [1] d'alex وكدت لا اتعرف على المبنى الأحمــر الــذى

---

[1] – المدرسة السويسرية بالاسكندرية.

قضيت فيه مرحلة الدراسية الاولى. ففى الفناء الصغير – امام السـهم المؤدى الى فصول المرحلة الابتدائية – تزاحم عدد كبير من التلاميذ والتلميذات فى زى "بيج" اللون وأخذوا ينظرون الينا مع مدرساتهم المحجبات، وقد علا الاندهاش وجوههم.

وفى خلف المبنى بحثت دون جدوى عن مكانى المفضل، ولكن بدلاً من الملعب والفناء – الذى كنا نقض فيه وقت الفسحة – ثم تشيد مبنين، بينما يحجب المبنى الضخم – فى الجزء الخلفى – السماء.

صعدنا السلم بسرعة لنرى أحد الفصول القديمة حيث كان عدد التلاميذ بها – حينذاك – لا يتعدى الثمانية، فإذا هناك مناضد لا حصر لها يجلس اليها أكثر من أربعين تلميذاً وتلميذه. وبعد أن قدمنا أنفسنا للمدرسة على أننا تلاميذ قدامى بالمدرسة، قام التلاميذ بتحيتنا تحيةحارة وهم يبتسمون. أما التجهيزات بالفصل فلم تتغير كثيراً، فما تزال هناك رسوم ملونة للأطفال معلقة على الجدران، إلا أن الأرقام كانت مكتوبة بعناية باللغة العربية.

بعد زيارتنا، التى أحيت فينا ذكريات قديمة عديدة، غادرنا المبنى من خلال الباب الخشبى الكبير. وعندما نظرت الى الرصيف المقابل إبتسمت. فهناك رأيت محلات صغيرة ومتواضعه تحمل كلها دون استثناء اسماء عربية، إذا بأحدها قد كتب على واجهته: "لوزان".

من المحتمل ان صاحب المحـــل قـد كتـب ذلـك ليذكـره باقامتـه فىسويسرا او لمجاورته للنادى السويسرى الــذى كـان يقـع بجـوار مدرستنا القديمةو كان هدفاً لزيارتنا التالية.

لقد انخفض عدد أعضاء النادى فلم يعد يسكن الاسـكندرية سـوى بضعة عشرات من المواطنين السويسريين.

الا ان مبانى النادى لم تتغير تقريباً خلال الخمسـة وثلاثيـن عامـاً الماضية. فقد بدا كل شئ - تقريبا- كما كـان فـى المـاضى: صالـة البولينج التى كان الملك فاروق يتردد عليها كثيراً، القاعة الكبيرة، التى بها المسرح، والذى ظهرتُ عليه كملاك بثوب ابيـض وجنـاحين مـن الكرتون، مشاركة بغرور طفولى فى تمثيلية ميلاد المسيح أثناء أحتفالنا بأعياد الميلاد، والمكتبة المزدانه بصورة ملونـه للجـنرال "جيسـان" ورفوفها المليئة، بالتقارير السنوية عن المجتمع السويسرى، والمجلدات السنوية لعداد الجريدة السويسرية" جورنال سويس دى إجيبت ايـه دو بروش أورينت".

ولقد دهشت كثيرا عندما رأيت فى أحد الأعداد إعلانا عن ميلادى.

وفى حجرة مكسوة بشعار المقاطعة الداكن كانت هناك مائدة عـامرة بالطعام اعدت من أجلنا: ورق عنب محشو، انواع مختلفة من السـلاطة ولحوم، أما محبو الحلويات فقدم لهم العديد مـن الحلويـات المحشـوة بالجوز والغارقة بالعسل، بالأضافة الى تورتة كبـيرة مسـتطيلة رسـم عليها بالسكر الملون رجل يدخن الشيشة وعلى راسة طربوش أحمر.

وقدمت لنا صينية مأكولات مصرية. أما الصحون الواسعة البيضاء المزدانه بالعلم السويسرى فكانت هى نفسها التى كنا نستخدمها فى الماضى فى حفلات النادى.

بعد استعادة الذكريات القديمة والانطباعات الجديدة الكثيرة التى تولدت لدينا بعد اليوم الاول لزيارتنا للاسكندرية، كان مازال أمامنا - أنا وفالتى عدة ساعات للتجول.

وهكذا مضينا لزيارة بيتنا القديم بشارع"مارك أورلى" والذى صار اسمه " أحمد قمحة بك" .بذلت مجهوداً كبيراً للتفاهم مع السائق، فهولايتكم سوى العربية، التى تضاءلت قدرتى على التحدث بها بعد سنوات غياب طويلة عن مصر. بالاضافة الى ذلك كانت كافة أسماء الشوارع قد تبدلت اما مستشفى "كوتسيكا" اليونانى، والذى كنت أراه من شرفة منزلنا، فلم يعرفة السائق ايضاً بعد أن تحولت ملكيته وتغير اسمه.

وفى النهاية تذكرت أنه قد تم إقامة جامعة على منطقة التلال الواقعه أمام منزلنا، وذلك بعد مغادرتنا للاسكندرية بزمن قليل[1] إلا أننى لم اعرف كلمة "جامعة" باللغة العربية ولم يخطر ببالى سوى كلمة"مدرسة" التى لم تعن شيئا للسائق.

[1] - جامعة الاسكندرية.

وبعد عدة مرات من التوقف لسؤال العابرين قادنا السائق فيالنهاية الى العنوان المطلوب.

كانت صدمة كبيرة بالنسبة لى، فكل شئ قد تغير تماماً .

فهناك حيث كان منزلنا تم بناء عدة منـــازل عاليـــة وطريـــق فـــى وسطها. الشئ الوحيد الذى ذكرنى ببيتنا القديم لم يكن ســـوى اللـــون الأزرق لخصاص النوافذ.

حاولت أن أوارى مشاعرى أمام فالتى، فهو لا يستطيع تخيل الحـــال فىالماضى عندما قضيت هنا مع أبى وأمى وأخى سنوات جميلة.وفـــى اليوم التالى مضينا بالسيارة مرة أخرى على طريق الكورنيش، ولكـــن هذه المرة فى الاتجاه المضاد، شرقاً فى اتجاه منطقة"أبوقير" المتواضعة والمشهورة بمطاعمها الصغيرة والكثيرة والتى كانت تقدم كـــل أنـــواع السمك.

وكان هدفنا هو محل " زفريون" محل السمك العريق الذى كان يقـــدم فى "التراس" أصناف السمك وفواكه البحر الممتازة.

وتلك المنطقة الصغيرة التى يرتادها محبوا الســـمك، لـــم تكتســـب شهرتها من خلال السمك الممتاز فقط، وانما كان السبب الأساسى فـــى ذلك تلك المعركة البحرية الشهيرة، والتى دخلت التـــاريخ مـــن أوســـع

أبوابه وهى المعركة التى دمر فيها الانجليز بقيادة الأدميرال نلسون أسطول نابليون البحرى فى صيف عام ١٧٩٨.

وفى طريقنا الى"أبو قير" مررنا بالمنتزة حيث قصر الملك السابق فاروق والذى لم أره الا من بعيد من شاطئ سيدى بشر، كشبح صغير فى الأفق .

أما الان فأراه لأول مرة أمامى، قصراً عديم الذوق تقريباً عبارة عن خليط من مدارس معمارية مختلفة.

اعترتنى الدهشة وانا أرى الاسكندرية وقد إمتدت على نحو لايصدقة عقل – فى خلال عدة عشرات من السنين.

ففى الماضى كانت منطقة "أبو قير" تقع على بعد ٢٠ كيلو متراً من وسط المدينة أما الان – بعد أربعين عاماً – فقد امتدت – المدينة التى عشت بها فترة الصبا – حتى "أبو قير" تقريباً.

فى "الاتوبيس" كنا نبذل قصارى جهدنا لنستدل على الطريق الصحيح، فالأحياء العديدة التى نشأت حديثاً غيرت وجه المدينة تماماً. وبدا تعبير " قانون البناء مفهوماً غريباً على الناس هنا.

فمجموعات سكنية صغيرة وكبيرة بدت وكأنها نبت شيطانى. فبين بيتين يرتفعان لأربعة عشر طابقا تم بناء منزل من خمسة طوابق فقط.

وقد سكن االناس كل مكان، حتى المنازل التى لم ينته البناء فيـــها، ففى كل النوافذ، أو أية فتحات اخرى، ثم نشر الملابـــس أو بياضـــات الأسرة.

وأحياناً كنا نرى أقفاصاً لتربية الدجاج أو الحمـــام فـــى الشرفـــات الصغيرة.

وفى كل مكان كان مشهد واحد يتكرر: وسائل مواصلات من كل نوع تملا الشوارع او تحاول ايجاد طريق لها وسط زحـــام النـــاس، نســـاء محجبات، خلفهن طوابير من الأطفال يتحدثن مع بعضهم البعـــض أمـــام مداخل البيوت المعتمة، بينما يحاول بعض الصبية بيع أى شئ. وعلـــى كل ناصية تقريباً كانت صفائح ضخمة تمتلأ بالزبالة عن اخرها، بينمـــا تظهر ثمار البرتقال واليوسفندى وقد رصها البائعون بشكل فنـــى علـــى هيئة أهرامات.

بعد زيارتنا "أبوقير" بقيت لى عدة ساعات استغلها للقيـــام بزيـــارة قصيرة لمدرسة"إنجليش جيرلز كولدج"[1] وعلى النقيـــض مـــن مدرســـة "إكول سويس دى الكسندريا" بدت هذه المدرسة وكأن لم يصبها أى تغير منذ كنت أؤدى فيها الامتحان النهائى فى صيف عام ١٩٥٠، فمـــازالت مباينها تحتفظ بلونها الأصفر وماتزال هناك الحديقة باشجارهـــاء حتـــى لون النوافذ الأخضر الداكن لم يتغير.و كانت بعض الســـيارات الحديثـــة تقف أمام المدخل العمومى.

---

[1] – كلية البنات الانجليزية.

على عهدى كانت هذه المدرسة تضم حوالى ٤٠٠ تلميذة مـــن كـــل مراحل العمر، أما الأن فقد ارتفع عددهم الى ٤٠٠٠، لم أقـــابل منـــهن سوى واحدة فى عصر ذلك اليوم، كانت الفتاة تلبس نفس الزى، الـــذى كنا نرتدية فىالشتاء، فيما عدا شعار المدرسة (EGC)الذى طرز بلون أصفر على سترتها، أما "الجوب" فكان رمادياً داكنــا كالعـــادة، وكـــانت ترتدى بلوزة صفراء بدون "كرافته" رمادية كما كانت التعليمات تجبرنـــا على ذلك فىالماضى.

رجوت "فالتى" أن ينتظرنى فى "التاكسى" ثـــم عـــبرت أنـــا البوابـــة الرئيسية، فحاول "بواب" عجوز منعى من الدخول، الا اننى استطعت أن أمرق الى داخل المدرسة، على نحوما.

صادفت مدرسة فى طريقى، وقدمت لها نفسى بأننى تلميذة ســـــابقة للمدرسة.فلمعت عيناها فرحاً وصحبتنى الى المديرة.

أثناء صعودنا درجات السلم لمحت فـــى الـــدور الأرضـــى الصالـــة المفتوحة بأعمدتها الزرقاء المكسوة بالقاشانى والفنـــاء الأنيـــق الـــذى توسطته نافورة صغيرة أحيطت بالزهور الملونة وخشب جميل. و على جزء من هذا العشب ارتفعت شجيرات صغيرة تشكل الحروف الأولـــــى لاسم المدرسة (EGC).

فى هذا المكان بدا الزمن وكأنه توقف.

أما فى الطابق الأعلى فقد لا حظت تغيراً ما.

قادتنى المدرسة الى باب مفتوح علية ثلاث لوحـات كبـيرة مليئـة بكلمـات عربيـة، وعلـى العليـا فيـها كتـب بالانجليزيـة "Headmistress"[*].

رحبت بى المديرة بأدب جم ثم اصطحبتنا الـى غرفـة المدرسـات وهناك تسمرت مكانى فقد تغير كل شئ تماماً. ففى الغرفة جلست بعض المدرسات وقد لبسن جميعاً ـ فيما عـدا القليـل منـهن – الحجـاب، وخلفهن كانت هناك بعض اجهزة الكومبيوتر.

ولما كنت لا أريد ان ينتظرنى فالتى طويلاً بالتاكس، فإننى للاسف لم أتمكن من رؤية حجرة الدراسة، او حمام السباحةالكبير الذى كنا نتدرب فيه من أجل حفلة الاجتماع السنوى لمجلس الآباء.

بعد زيارتى فى أوائل التسعينات لمدينة الاسكندرية، صارت المدينـة مرة أخرى على كل لسان عندما قام علماء آثار فرنسـيون باكتشـاف بعض الاثار النفيسة تحت الماء عند سطح قلعة قايتباى التى بنيت مكان فنار الاسكندرية القديم ، الذى كان أحد عجائب الدنيا السبعة.

لم أكن بحاجة الى هذه الاكتشافات العظيمة تحت الماء، لكى أتذكـر المدينة العريقة التى أسست قبل الفى عام، هذه المدينة التى ولدت بها،

---

[*] المديرة او ناظرة المدرسة

وتغيرت كثيراً خلال أربعين عاماً. ولسوف احلم - بشـــوق أو أســـى - بتلك السنوات الجميلة من عمرى.

الإسكندرية كلمة سحرية تجمع الناس فى شتى بقاع الأرض

منذ أكثر من ستين عاماً جرت العادة على عقد لقـــاء فـــى مدينـــة مختلفة من مدن سويسرا للمواطنين السويسريين صغاراً أو كباراً الذين عاشوا فى الاسكندرية أو القاهرة.

وأثناء تناول طعام الغداء يلتقى المعارف القدامى ليتذكـــروا ســـوياً أحداث الماضى التى لا تنسى، و التـــى عاشوهـــا علـــى أرض النيـــل الخصبة.

وفى مثل هذه اللقاءات كان الحديث يدور باللغة الفرنسية، كما كنـــا نفعل فى النادى السويسرى بالاسكندرية، وبين حين وآخر كان حديثنـــا يتضمن بعض العبارات العربية.

وفـــى بدايـــة التســـعينات نجحـــت إحـــدى التلميـــذات الســـابقات بمدرسة"انجليش جيرلز كولدج" فى العثور على اكثر من تلميذه ســـابقة بهذه المدرسة، وقد تطلب منها ذلك جهداً شاقاً ووقتاً طويلاً.

وقبل عامين تقريباً سافرنا إلى لندن فى إحـــدى نـــهايات الاســـبوع لنحتفل بلقائنا الثانى.

وكانت ذروة هذه الاحتفالات هى استقبال السفير المصرى لنـــا فـــى منزل فخم فى قلب لندن.

وقد شارك فى هذا الاحتفال ما يربو على ٣٠٠ تلميذة سابقة، حضر مع بعضهن أزواجهن.

كان ذلك حدثاً فريداً من نوعه أن أتقابل مع زميلاتى السابقات اللاتى لم أرهن منذ أربعين عاماً، لنسبح فى بحر الذكريات.

وقد جاء ت هاتيك الزميلات من جميع انحاء العالم : من أوروبا ومن الشرق الأوسط ومن ساوباولو ومن تكساس ومن سيدنى ومونتريال وجنوب افريقيا ومن اليابان.

وكان من بين الضيوف أيضا بعض المدرسات وناظرة المدرسة التى كانت تدير المدرسة أثناء دراستى بها. والتى كنت اتذكرها جيداً، فقد ذهبوا بى اليها عدة مرات عندما ضبطت أثناء الفسحة وانا اتحدث مع زميلة لى باللغة الفرنسية بدلاً من الانجليزية.

أما العقوبة فكانت عبارة عن كتابة عدة صفحات من مسرحية لشكسبير!!

وبجانب اللقاء الموسع، الذى كان يتم كل سنتين فى لندن، كان هناك لقاء مصغر تنظمة ٢٠ زميلة يمثلن دول أوروبا والشرق الأوسط ودول أمريكا الشمالية والجنوبية.

وفى السنة الماضية قامت التلميذات السابقات بتنظيم لقاء فى الاسكندرية للاحتفال بمرور ٦٠ عاماً علىتأسيس مدرسة"انجليش جيرلز كولدج"، ولكن للآسف لم استطع المشاركة فى هذا الحفل.

وفى نفس الوقت تقريباً – الذى تم فيه تأسيس إتحاد التلميذات السابقات بمدرسة" إنجليش جيرلز كولدج" – قام تلميذ قديم بمدرسة "الليسية فرانسية بالاسكندرية" (وهو مقيم الآن فى جنيف) مع بعض تلميذات "إكول سويس دى الكسندريا" بتأسيس إتحاد باسم " أصدقاء الاسكندرية فى الماضى والحاضر".(AAHA).

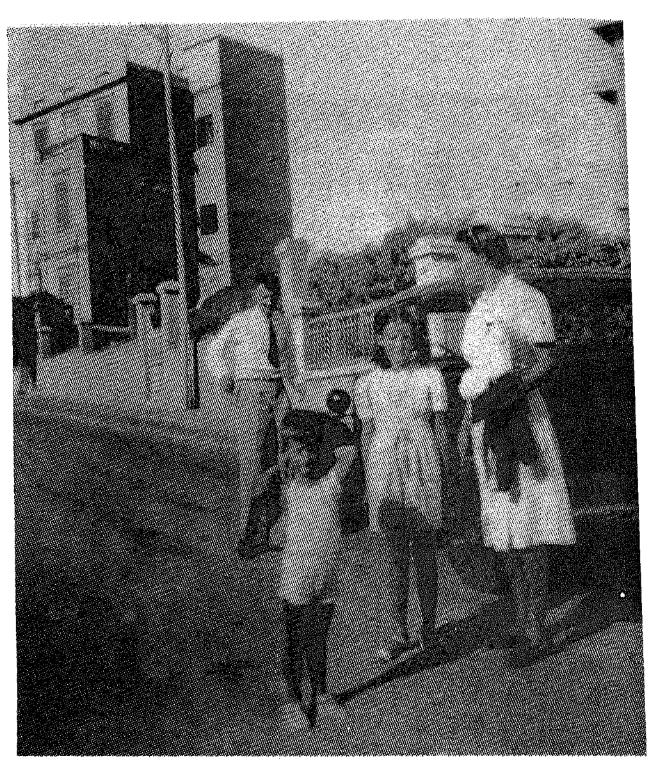
وعلى النقيض من الاتحاد الانجليزى الذى يضم تلميذات سابقات من مدرسة " إنجليش جيرلز كولدج" فقط، كان هذا الاتحـــاد يضـــم تلاميـــذ وتلميذات قدامى من مختلف مدارس الاسكندرية التـــى كـــانت تـــدرس باللغة الفرنسية، وهو يضم مئات الأعضاء من جميع انحاء العالم.

ومن خلال تجمعنا هذا صرنا – بطريقتنا الخاصة – نشكـــل وحـــدة واحدة مرتبطة بوطنها القديم : الاسكندرية.

أما مجموعة سويسرا، المتحدثة بالفرنسية، فهى تجتمع كل شهر فى إطار صغير وحميم، مرة فى "جنيف" وأخرى فـــى "لـــوزان" . وبجـــانب العلاقة الاجتماعية فإننا نقوم بتنظيـــم إلقـــاء المحـــاضرات أو زيـــارة المتاحف التى لها علاقة بالوطن القديم.

ونحن نفرح مرتين فى الســـنة بصـــدور " نشـــرة مختصـــرة عـــن الاسكندرية " تحت شعار "متناثرون ومتوحدون، مختلفون ومتوحدون"

وبين سطور هذه النشرة يعثر كل على ضالته من خطابات القراء، أو تنوية عن الاجتماعات الدولية القادمة أو تقرير عن إجتماعات ســـابقة، او مناقشة أحد الكتب، أو أخبار جديدة عن مشاركين جـــدد،أو صـــور قديمة عن الاسكندرية، ذكريات موجزة لأحد الاعضاء، قصائد شعر عن عروس البحر المتوسط بعضها مكتوب باللغة العربيـــة. لقـــد صـــارت الاسكندرية كلمة سحرية تجمع الناس من شئ بقاع الارض.



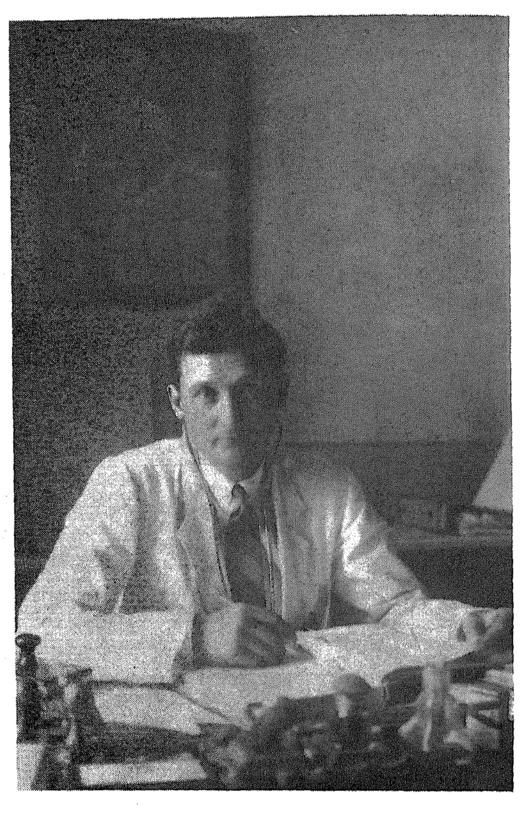
* أنا وأخي هنريش مع والدينا في إنتظار ركوب سيارتنا. في يمين أعلى الصورة يمكن رؤية جزء من شقتنا.

وعندما عدت إلى الإسكندرية عام ١٩٩١ لاحظت بحزن أختفاء الحدائق ومنزلنا السابق. كما أن «أرض اللاأحد» صارت جزءاً من جامعة الإسكندرية.

No. 4 Cairo The Citadel

Publ. and Copyright by Lehnert & Landrock, Succ. Cairo

* عندما كنا نقضى العطلة فى «قها» أرسل والدى هذه البطاقة البريدية إلى أمه فى سويسرة وقد كتبها يوم ١٩٤٢/١٢/٢٩ . وهذه البطاقة تعد وثيقة هامة؛ فإلى جانب الطوابع التى تحمل صورة الملك فاروق، فإنها تحمل أيضاً ثلاثة أختام مختلفة كل الاختلاف: ختم البريد المصرى، وختم الرقابة الألمانية (الأحمر) ثم ختم آخر غير واضح والأرجح أنه ختم الرقابة الإنجليزية. على البطاقة كتب أبى يقول « والدتى العزيزة.. إننا نمضى



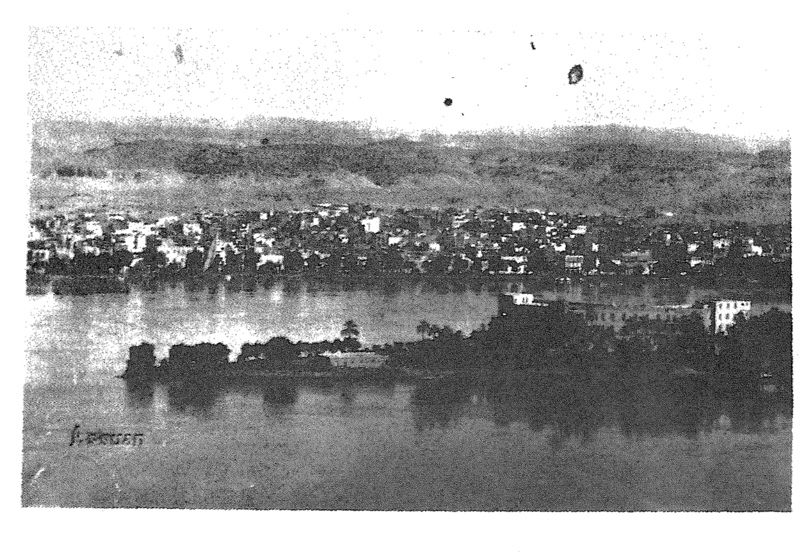
* والدى د. تسيمرلى فى مكتبه فى مصحة فؤاد الأول فى حلوان
(١٩٣٢)



* فندق كاتاراكت فى أسوان لم يكن يتدفق عليه حينئذ آلاف السياح



* صورتى مع أمى (الأسكندرية عام ١٩٣٦).



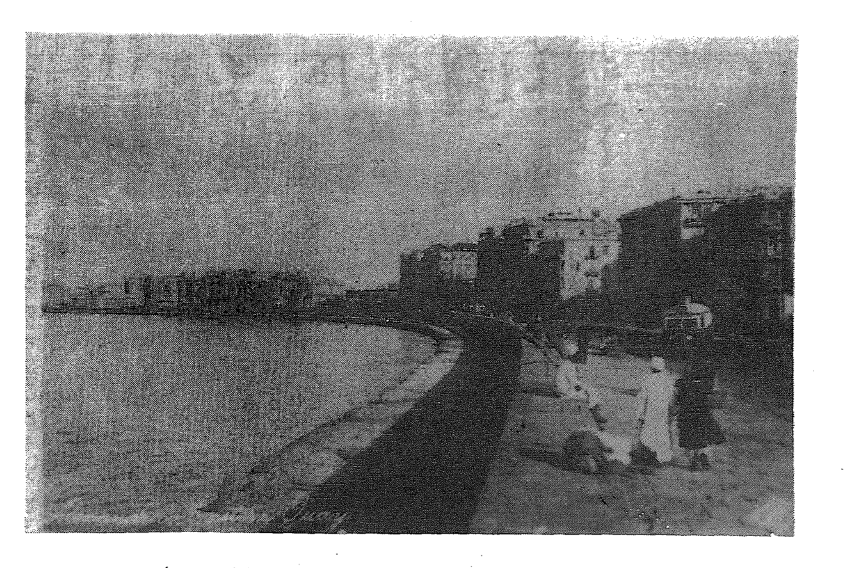
* أسوان في الأربعينات



* شارع سعد زغلول بالأسكندرية سنة ١٩٤٥



*الترحيب الدافئ والصادق الذى قوبلت به عند زيارتى لمدرستى القديمة «المدرسة السويسرية» بالأسكندرية، والآن صارت تحت إدارة مصرية. لدى فى منزلى صورة مكبرة لهذه الإبتسامات المصرية الجميلة



* كورنيش الإسكندرية فى أوائل الثلاثينات حيث كان والداى يتنزهان كل مساء.

DR. E. ZIMMERLI
(Dipl. Féd. Suisse, M.R.C.S. L.R.C.P. Lond.)

ANCIEN DIRECTEUR DU
SANATORIUM FOUAD A HÉLOUAN

SPÉCIALISTE POUR
MALADIES DES ORGANES RESPIRATOIRES
RADIOGRAPHIES

Consultations { de 12 à 1 hs. / de 5 à 6 hs.

EXCEPTÉ SAMEDI APRÈS - MIDI

21, Boulevard Said 1er
Tél. 26617

الدكتور زيمرلى

الطبيب بصحات سويسرا
ومدير مصحة فؤاد بحلوان سابقاً

العيادة من الساعه ١٢ الى الساعه ١
ومن الساعه ٥ الى ٦ مساء
ما عدا السبت بعد الظهر ويوم الأحد

٢١ شارع سعيد الاول بالاسكندرية
تليفون نمرة ٢٦٦١٧

11 JUNE 1940

My dears, ~~Alexandrie,~~

Last night Mussolini entered the spectacle, meanwhile Trudy's letter had been lying here, just to give me time to add this. Alex. is pitch dark again at night and driving about ~~it~~ is a nuisance. Otherwise nothing happening so far. I wonder if Egypt will be drawn into the war this is hardly decided yet. At any rate, don't worry about us. If Egypt enters the war the Italians are still not likely to throw a great mass of bombs on the town because their hope is to

جزء من خطاب كتبه أبى على ورقة « روشته » وأرسله إلى خالى وخالتى فى سويسرة فى بداية الحرب العالمية الثانية (تاريخ الخطاب ١١ يونيو ١٩٤٠) وفيه يقول :« فى الليلة السابقة دخل موسولينى معترك الحرب [الى جانب هتلر] ولم نكن قد أرسلنا بعد الخطاب الذى كتبته ترودى [يعنى امى] .. ربما لأضيف اليه هذا الكلام . إن قوانين الاظلام تطبق بدقة على الاسكندرية ليلاً . وفيما عدا ذلك فليس هناك جديد . وإنى أتساءل إذا ما كانت مصر سوف تُجر إلى الحرب من الصعب الحكم على هذا الأمر . على أى حال لا تقلقوا علينا . ولو دخلت مصر الحرب فليس من الوارد الآن أن يهاجم الايطاليون مدينة الاسكندرية بقاذفات القنا بل لأن املهم هو أن .... »



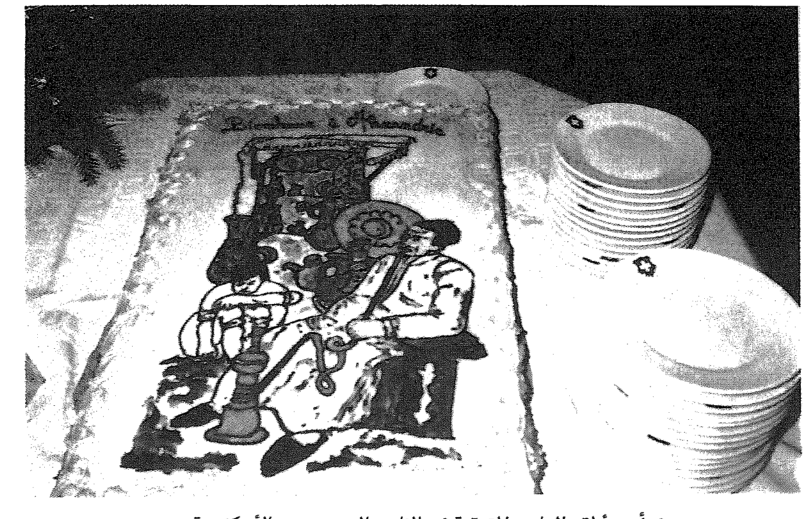
* قصر الخديو توفيق فى حلوان وقد تحول إلى فندق ثم إلى مصحة، تحمل إسم الملك فؤاد، حيث كان دكتور تسيمرلى، والمؤلفة يعمل طبيباً عام ١٩٢٩.



* صورة على شاطئ ستانلى بالأسكندرية عندما كنت فى المدرسة الاسكتلندية للبنات بالأسكندرية. أنا الأولى من الشمال فى الصف الثانى



* صورة لتلاميذ وتلميذات الفصل الذى كنت فيه فى المدرسة السويسرية بالإسكندرية عام ١٩٤٤ وفى الصورة أخى هنريش يجلس فى الصف الأول السابع من اليسار، وأنا أجلس فى وسط الصف الثالث، الثامنة من اليسار، وفى الصورة مدرس اللغة العربية الأستاذ خورى، الأول من اليسار فى الصف الخامس (واقفا).



* أحد أطقم الحلوى المتبقية فى النادى السويسرى بالأسكندرية حيث احتفلوا بنا عند زيارتنا للمدينة عام ١٩٩١. هذه الأطباق أستخدمت لأكثر من خمسين عاماً.

My Birth Certificate
with father's handwritten
notes

MUNICIPALITÉ D'ALEXANDRIE بلدية الاسكندرية

SERVICE SANITAIRE قسم الصحة

Certificat de Naissance

شهادة ميلاد

EXTRAIT du registre sanitaire du Kism ملخص من دفتر مواليد صحة قسم ... 1934

N° d'enregistrement et date de la naissance ... نمرة القيد وتاريخ الميلاد

Nom et sexe du nouveau-né ... Esther ... انثى ... اسم الطفل ونوعه

Nom et prénom du père ... اسم ولقب الوالد

Nom et prénom de la mère ... اسم ولقب الوالدة

Profession du père (ou de la mère) ... Arzt ... صناعة الوالد (او الوالدة)

Nationalité ... Schweizer ... الجنسية

Religion ... protestant ... الديانة

Sage-femme ... الداية

Habitation et rue ... جهة السكن والشارع

Le ... 193 ... تحريرا في ... ١٩٣

Pour copie conforme, à délivrer gratuitement هذه الصورة طبق الاصل تعطى مجانا

Signature de l'employé chargé de l'enregistrement توقيع الموظف المسؤل عن التسجيل

L nommé ... المسمى

a été vacciné ... en date du ... 193 ... ١٩٣ بتاريخ ... تطعم

et ... pustules ont réussi en date du ... 193 ... ١٩٣ ... و ... باسورات نجحت في

N° d'enregist du registre de la vaccination de نمرة القيد من دفتر التطعيم الصحي بجهة

Signature ou cachet du Médecin, توقيع او ختم الطبيب

Le ... 193 ١٩٣ سنة ... تحريرا في

Année 1923 — San. P. 35 F — 100

L'enfant devra être vacciné dans les trois mois de sa naissance. Tout retard sera puni d'une amende de P.T. 10 à 100 (voir Décrets sur la vaccination en Egypte, 17 Décembre 1890 et 6 Août 1897. et loi No. 9 de 1917).

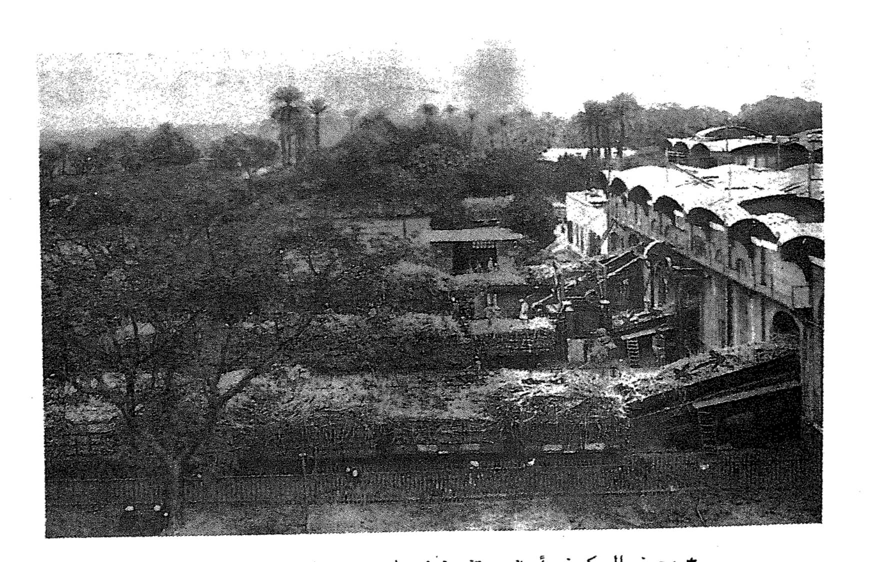
ينبغي تطعيم الطفل في ظرف ثلاثة شهور من يوم ميلاده ومن يتأخر عن تطعيم الطفل في المدة المبينة يعاقب بغرامة من عشرة لمائة قرش (انظر لائحتي ١٧ ديسمبر سنة ١٨٩٠ و ٦ اغسطس سنة ١٨٩٧ تطعيم والقانون رقم ٩ لسنة ١٩١٧)

Dans le cas de déplacement des parents de l'enfant à une autre localité, avant la vaccination, les parents doivent faire la vaccination de l'enfant à la nouvelle résidence, pour éviter d'être mis en contravention ; en même temps ils doivent prévenir le médecin du District ou l'Omdeh du Village pour que ces derniers en avertissent le Bureau où l'inscription de la naissance a été effectuée.

في حالة انتقال والدي الطفل الى جهة اخرى قبل التطعيم يجب عليهما تطعيم الطفل في الجهة التي ينتقلان اليها منعاً لوقوعهما تحت طائلة العقاب ويجب اخطار طبيب المركز او عمدة الناحية بذلك لكي يخطرا بمعرفتهما مكتب الجهة التي قيد فيها المولود

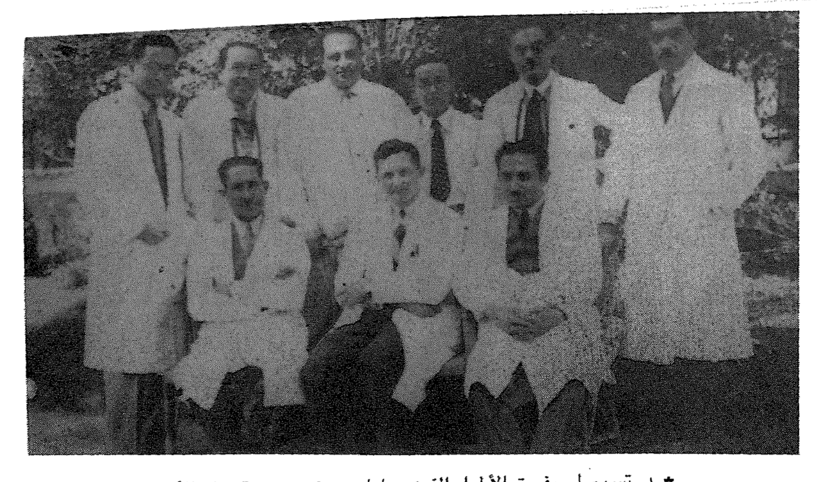


* مشهد من الإسكندرية فى أواسط الأربعينات

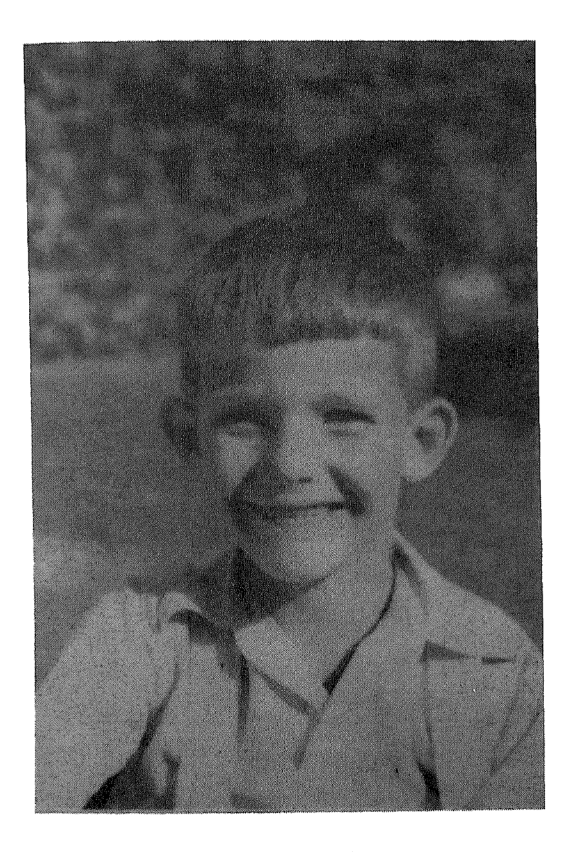


* مصنع السكر فى أرمنت : تفريغ شحنات قصب السكر على مراسى عائمة.

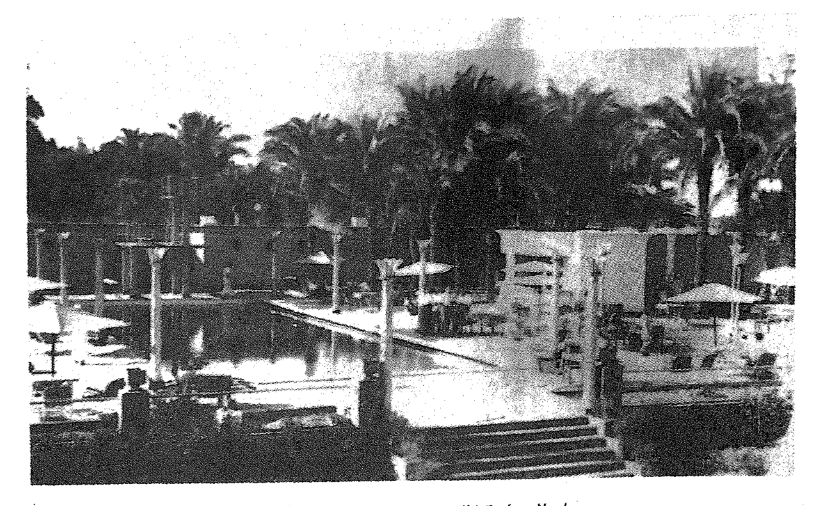

ALEXANDRIA : Ramleh Station



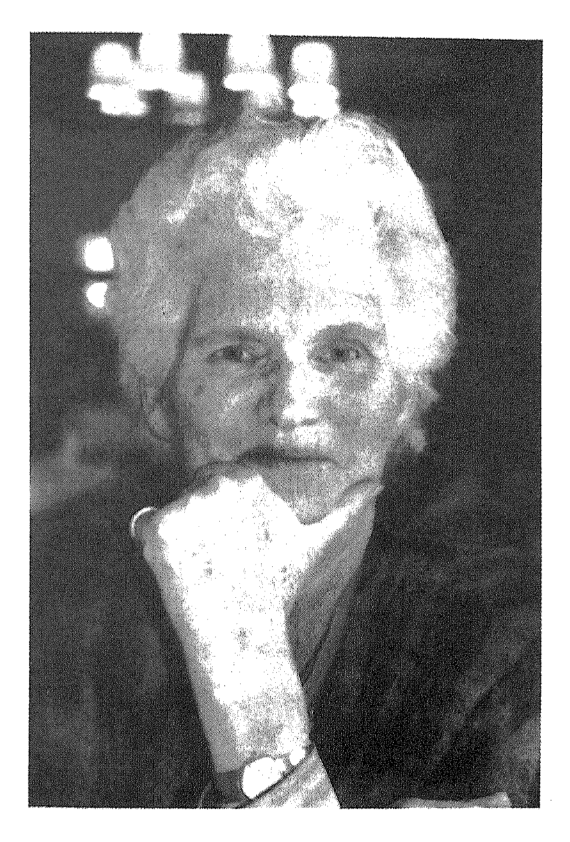
* د. تسيمرلى وفريق الأطباء الذين عملوا معه فى مصحة فؤاد الأول فى حلوان وهم من اليسار: د. الأنصارى، د. شريف، د. شكرى، الصيدلى عبد العظيم أفندى، د. كمال، د. عباس طبيب التحاليل.
الجالسون : د. رؤوف. والدى د. تسيمرلى، د. عشرى.



* أخى المبتسم هنريش.



* حمام السباحة الملحق بمصنع السكر فى أرمنت الذى أفتتح فى يوليو ١٩٤٦ . وكنّا هناك فى الاحتفال برأس السنة الجديدة ١٩٥٠ وكم كانت دهشتى حين رأيت حوض السباحة وقد غطته أوراق الورد.



* إستر تسيمرلى- هارتمان ١٩٩٧



* كم كنت أحب أن تقوم فاطمة بتمشيط شعرى

لوحـــة الغـــلاف : سلفادوردالى
الإخراج الفنى للغلاف : محمد هريدى

رقم الإيداع : ٩٦٨١ / ١٩٩٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N

الناشر : جرين ليف

ت : ٢١٥٠٠٩٧ - فاكس : ٢١٤٠٥٣٦
١ شارع توفيق - قليوب المحطة



« كنا نعيش فى الأسكندرية فى الأربعينات من القرن العشرين، وكنت أذهب كثيراً إلى سوق الإبراهيمية. وفى حىّ السوق كان يسكن مواطنون من بلدان البحر المتوسط فى منازل تتكون من طابق أو طابقين. وكان من بين هؤلاء - بالأضافة إلى المصريين - اليهود والشوام واليونانيون والمالطيون والأرمن والإيطاليون وكثيرون من بلدان البحر المتوسط.

وبينما كان صوت المغنى الفرنسى « تينوروس » ينبعث من إحدى النوافذ مردداً أشهر أغانيه كانت بعض الفتيات يقفن أمام منازل قديمة ويتبادلن الشتائم باللغة العربية أو اليونانية أو الايطالية، بينما كانت إحدى بنات الشام تقف على مقربة منهن وقد فهمت كل حديثهن وأخذت تضحك من قلبها.،،

